

اشتغالات فلسفة التاريخ من الاصول حتى الاصطلاح

م . د . حامد عبد الحمزة محمد علي
جامعة بابل كلية التربية للعلوم الانسانية

المقدمة

تذهب دراستنا موضوع البحث ، الى الوقوف على بواكير التفكير الفلسفي للتاريخ ، وعلى الرغم من اننا لم نجد فلسفة التاريخ كاصطلاح في الفلسفة ودراسات التاريخ ، حتى جاء به الاديب والفيلسوف الفرنسي فولتير . لكن هذا لا يصرح لنا القول بعدم وجود تفكير تأملي وتحليلي وباطني وتفحصي للتاريخ قبل الاصطلاح ، من هذا جاءت دراستنا كمحاولة لإيجاد ما ذهب اليه أصحاب العلاقة في تفكيرهم الفلسفي للتاريخ ، فقمنا بتتبع ابرز الإشارات والتنبيهات ، والتي تطورت الى نظريات عند الفلاسفة منذ تلك اللحظات التاملية التي شكلت الفلسفة اليونانية وحتى ظهور المصطلح . وفلسفة التاريخ تذهب الى عدم عد التاريخ دراسة لأحوال الماضي فحسب ، بل ما يعطي التاريخ خصوصيته كونه يبحث في تعاقب الحوادث وتطور فعل الانسان على مر الأزمان ، والزمان هو احد اهم ركائز التاريخ والذي لا تاريخ من دونه ، وهو يحمل في مسيرته تلك النقاط التحولية لمراحل الامم المختلفة ، كذلك الحال بالنسبة الى المكان الذي اتفق الفلاسفة والمؤرخون على انه من اهم اركان المسرح التاريخي فلا تاريخ بدون مكان ، اما الانسان فقد كان المكمل الرئيسي للدائرة التاريخية ، ولان الانسان من ضمن دائرة التاريخ ، كان لا بد من ان يحمله الى محمل العقل والادراك ، والانسان صاحب التفلسف صور لنا تلك المراحل التي مر بها الانسان وهو يتأمل تاريخه ، فقدم لنا تاريخ عقل متفلسف في التاريخ ، ونحن هنا سلطنا الضوء على تلك اللحظات التي تأمل بها الانسان التاريخ بلغة الفلسفة حتى فولتير، من هذا جاءت دراستنا بمبحثين . الاول حمل عنوان (نشأة فلسفة التاريخ – الاصول) ، وجاء بمطلبين : الاول، بحثنا فيه التاريخ عند ابرز حضارات الشرق القديم ، حضارة وادي الرافدين ، وحضارة وادي النيل ، وحضارة الصين ، اذ حاولنا تسليط الضوء على تلك الأفكار القديمة في تلك الحضارات التي كانت تحمل دلالات التفكير الفلسفي في التاريخ ، وما تحمله هذه الحضارات من مضمون فكري بعمق تأملي لدراسة

التاريخ ، اما المطلب الثاني ، فقد خصص للبحث عن جذور فلسفة التاريخ عند اليونان والرومان ، ولهذا المطلب اهمية بالغة ، اذ ان اليونان على وجه الخصوص قد مثلوا مرحلة الانتقال من الله الى الانسان وهم اول من شرع يفكر فلسفيا بالمعنى التنظيمي للتفكير ، فكانت طريقة التفكير بالتاريخ لديهم هي السؤال عن كل ماهو استفهام ؟ وهذا التفكير الذي اخذ يحمل طابعا علميا قد اختلف في مضمونه عن التفكير القديم ، وبهذا فان طريقة التفكير بالتاريخ اخذت صفة العلم . اما المبحث الثاني ، فقد حمل عنوان (الظهور وتطور المصطلح) ، وتكون من مطلبيين : الاول ، تحت تسمية ظهور فلسفة التاريخ ، وفيه تم دراسة اهم النظريات في التاريخ وبرز فلاسفتها ، وكان ابرزهم القديس (اوغسطين) والعلامة (ابن خلدون) ، ولأهميتهما في دراسة المؤرخ والفيلسوف فاستوجب الامر التوقف عندهما لاغناء البحث بافكارهما التي مازالت حية وقائمة برغم تطور الاصطلاح والمفهوم ، اما المطلب الثاني ، فقد تعلق بتطور المصطلح في عصر النهضة عند الفلاسفة الذين سبقوا فولتير ، وعند فولتير ، ايضا الذي اشتهر بانه صاحب اصطلاح فلسفة التاريخ المبحث الأول . نشأة فلسفة التاريخ (الأصول) .

المطلب الاول : التاريخ عند ابرز حضارات الشرق القديم .

لا مناص من القول ، ان الحديث عن تسمية فلسفة التاريخ قبل ظهور المصطلح ، على لسان فولتير . 1694- 1778⁽¹⁾ وقبل ان ينقسم ، الى فلسفة تاريخ مثالية ، وأخرى نقدية . كان حديث في الفكر التاريخي ، من خلال محاولة تسليط الأضواء على الوقائع التاريخية ، بغية تحليلها ومحاولة الاستفادة من تجاربها ، لغرض التنبؤ بحوادث المستقبل . فكانت محاولات للتفكير في سبر أغوار الوعي التاريخي . ويبدو ان الوعي التاريخي هو أساس فلسفة التاريخ باصطلاحها الحديث .

1 - فرانسوا ماري ارويه دي فولتير ، فرنسي ، ولد في باريس لأسرة برجوازية ، وتعلم في الكلية اليسوعية ، وترك دراسة القانون الى الأدب، وكان مزاجه فلسفيا فجاءت اغلب كتاباته الأدبية فلسفية المنحى والتناول . الحفني ، عبد المنعم ، الموسوعة الفلسفية . دار المعارف للطباعة والنشر ، (ب،ط) ، تونس ، 1992 ، ص.349

بل هو البديل الفعلي له قبل التسمية . وقد لاحظنا ان هيجل .1770-1831⁽²⁾ قد أكد بعد عصور طويلة من تشخيص الوعي كأساس لدراسة التاريخ . وتحديدًا في القرن التاسع عشر ، ان التاريخ هو الوعي بالحرية . بيد ان الوعي بالتاريخ ليس مقصورا على من بدأوا استخدام لفظ التاريخ ، أو على من كتبوا المؤلفات التاريخية الكاملة مستخدمين فيها مناهج بعينها . فالوعي بمعنى التاريخ وأهميته قد تشكل مع أول من سجل وثيقة يصف فيها انجازات البشر في اي مجال من المجالات . وعليه فإن الوعي التاريخي وأهمية التاريخ قد بدأ منذ فجر الحضارة البابلية ، وكذلك المصرية ، وحضارات الشرق الأخرى . حيث بدأ الانسان يعي أهمية تسجيل الأحداث التاريخية الكبرى ونسبتها الى صانعيها من الملوك والحكام ، فالنقوش الأثرية على جدران المعابد لا تزال شاهدة على العناية الكبرى التي أولاها هؤلاء الملوك لتسجيل منجزاتهم ومعاركهم الحربية التي ساهمت في تطوير ممالكهم وفي توسيع رقعتها ، كما ان أدبيات الحضارات الشرقية المختلفة تكشف عن عمق الايمان بأهمية تسجيل ما حدث في العصور السحيقة والاستناد على امجاد الشعوب السابقة في امكانية النهوض من جديد وصنع الحاضر الزاهي الذي يحلم به الجميع وعلى رأسهم كتاب البرديات والملاحم والأدبيات المختلفة . ومن أمثالها ، ما كتبه ايبور ونفرر وهو في مصر القديمة ، وما تذكره ملحمة جلجامش في العراق القديم ، وكتاب التغيرات **yking** في التراث الصيني القديم فضلا عما جاء في كتاب التاريخ لكونفشيوس . ومن خلال الدراسة المتعمقة لهذه الوثائق والكتابات التاريخية في حضارات الشرق القديم ، يمكن ان تكشف أمامنا بما لا يدع مجالاً للشك ان لدى هذه الحضارات من عني بتسجيل المنجزات الحضارية سواء أكانت احداثا سياسية او مواقع

2 - فيلسوف ألماني . ولد في شتوتغارت ، ومات بالكوليرا في عام 1831 في برلين .وقد كان ابنا لمستخدم في الإدارة الدوقية ، وأمضى ثمانية عشر عاما في البيت الأبوي والمعهد ، ولكنه سرعان ماانقلب على أجواء هذا المعهد اليسوعية ، وأصبح فيما بعد من أعظم الفلاسفة تأثيرا في تاريخ الفلسفة ولايمكن ان نفهم الوجودية والماركسية والبرجماتية والفلسفة التحليلية والنزعة النقدية دون ان نفهم هيجل وتأثيره فيها جميعا بالسلب والإيجاب . طرابيشي ، جورج ، معجم الفلاسفة . دار الطليعة ، ط3 ، بيروت ، 2006 ، 721 .

ءربفة . أو مكفشفاف علمفة فف مءفلف العلوم أو كائف نظرفاف فلسفة بلورها مفكرو هءه الحضارف.⁽³⁾

وإءساس الإنسان فف الحضارف الفءفمة ، بالزمن والءوف من الموت فء ءعل من الكفابفة أعظم وسفلة لءفظ الأءار الءالفة . ولن ءءء الإنسان فف ءارف الشرائع كلها الفافا ارق وأءمل من ألفاظ ملك بابل الشهفر ءمورابف .. " فلفاء أي إنسان مءلوم له قصففة امام صورفف انا ملك العءالفة ، ولفقرأ الففش الءف على اءرف ، لفلق باله الف كلماءف الءففر ، ولعل اءرف هءا فكون هاءفا له فف قصففءه " ، وءفم شاعر مملكة مصر الوسطف (بءاح ءءوب) ءوالف 2800 ق.م. ءعالفمه بهءه العبارفة الءالفة على إءساس عمفء بالمسءقبل " لن فمءف من هءه البلاد الف ابء الءهر لفظ من ألفاظ المءونة هنا ، ولكنها سءءء نماءء وسفءءء عنها الأمراء اءسن الءفء " .⁽⁴⁾

وففءو لنا ، ان الإنسان لما كان كائنا زمنفا ، فأن ءفكفر بالءارف ءزء من اسءغالفءه ، وكل نظرفة فف ءارف ءظهر موقف الإنسان من الزمان فالإنسان هو الكائن الزماني الوءفء ، لأنه مفطور على ءاسفءف الءاكرفة والءوقع ، إذ انه فنظم ءفاءه ءااءل شبكة نسفءها الماضي والءاضر والمسءقبل ، هءا الءسن الزماني فرءع الف الحضارف البءائففة.⁽⁵⁾

فنءء ان الءوف من الموت ورءبة الإنسان فف الءلوء ءعء من اقوى الءوافء الءف ءفزء الإنسان منذ اءقم العصور الف ءفكفر فف الزمان على انه ءفر مسمءر ، ومن ءم ءعله ففءء عن معنف

³ - ففظر: الفشار ، مصطفى ءسن . فلسفة ءارف معنفا ونشأءفا واهم مءاهفها .ءار المسفرة للنشر والءوزفء والطباعة ، ط1، عمان ، 2011 ، ص65-66 .

⁴ - ءفوارنء ، ول ، قصة الءضارفة ، نشأة الءضارفة ، الشرق الأءنف .ءر، زكف فءفب مءموء ، ءامعة الءول العربفة ،الإءارة ءفقففة ، ط3 ، الفاهرة ، 1965 ، 151 .

⁵ - ففظر : وفلسون ، كولن . ءرانء ، ءون . فكرة الزمان عبر ءارف ، ءرءمة فؤاء كامل ، مراءعة شوقف ءلال ، مءلة عالم المعرفة ، عءء 159 ، آءار ، 1992 ، ص7 .

المصير الذي ينتظر الإنسان بعد الحياة . (6) فلم تكن ملحمة جلجامش إلا تمثيلاً لذلك الصراع ، محاولته اليائسة التشبث بالوجود ، مدفوعاً بغريزة حب الحياة والحفاظ على البقاء . " ما الذي حملك على هذا السفر البعيد ؟ أجاب جلجامش : جئت لأسأل عن (لغز الحياة والموت) ، وعلام تهيم على وجهك في الصحارى ؟ انه "انكيديو " صاحبي وخلي الذي احببته حبا جما لقد انتهى الى ما يصير إليه البشر جميعا ؟ فأجابت صاحبة الحانة : الى اين تسعى يا جلجامش ان الحياة "يقصد الأبدية " التي تبغى لن تجد حينما خلقت الالهة العظام البشر قدرت الموت على البشرية وأستأثرت هي بالحياة .(7)

إن الفكر التاريخي يتمثل في الموقف العقلي الذي يتخذه الإنسان إزاء الحوادث التاريخية ، وقد وجدنا هذا الموقف يتبلور منذ أقدم العصور في الشرق القديم ، لكنه لم يتحول الى نظرة فلسفية كلية متسقة الى التاريخ . لكن هذا لا يعني بأي حال من الأحوال انه ظل موضوعاً للتأمل الميتافيزيقي . بل يمكن القول ان الكثير من المحاولات قد بذلت من مفكري العصور القديمة ، للنفاذ الى جوهر العملية التاريخية ومحاولة معرفة اتجاهاتها ، فلقد كان التفسير الأسطوري للتاريخ هو السائد .

ولقد زخرت الذاكرة البشرية بزخم واسع من الأساطير ، كأسطورة جلجامش ، وأسطورة الخلق والتكوين والطوفان . ويعد هذا الضرب من التدوين التاريخي شبيه التاريخ الذي لا يسجل ما حدث فعلاً بل ما حسه الناس وأحبه أو اعتقدوا في أوقات مختلفة بأنه قد حدث . ويرى علي حسين الجابري " ان الأسلاف قبل خمسة آلاف سنة قد تمكنوا من دخول مرحلة العصور التاريخية حينما

6 - السواح ، فراس . مغامرة العقل الأول ، الدراسة في الأسطورة ، دار الكلمة ، ط2 ، بيروت ، 1981 ، ص2 .

7 - ينظر : باقر، طه . ملحمة جلجامش . منشورات وزارة الاعلام ، الجمهورية العراقية ، سلسلة الكتب الحديثة ، (ب،ط) ، بغداد ، 1975 ، ص112-116-117-120 . و. برستد ، انتصار الحضارة ، ترجمة احمد فخري ، مكتبة الانجلو المصرية ، (ب،ط) القاهرة ، 1962 ، ص71 .

اكتشفوا الكتابة والتدوين التاريخي ، متجاوزين آثار الكوارث والمصاعب الطبيعية ، وفي مقدمتها الطوفان حتى بدا لنا كأن المعنى الباكر للتاريخ هو الشاهد المدون" (8).

والاثار تمثل ذلك الحاضر المتجدد في نقل تجارب الانسان ، ولقد أوضحت المكتشفات الأثرية ان بلاد وادي الرافدين ، قد عبرت عن إحساسها بالتاريخ من خلال اهتمامها بتسجيل تجارب الأجيال الماضية ، وخبراتها ومنها أعمال الملوك والحكام ، ومحاولة تفسير التاريخ البشري العام بالرموز الأسطورية مثل خلق الانسان ومكانته في نظام الكون والحياة وظهور المجتمع وأنظمة الحكم . وقد استخدم العراقيون القدماء حادثة الطوفان كحد فاصل بين التاريخ القديم والتاريخ الحديث ، وكان من اهم المدونات التاريخية التي وصلت الى ايدينا عن العراق القديم جداول الملوك وهي : ثبت بأسماء الملوك والسلالات وسني حكمهم ، نظمها الكتبة عند مطلع الالف الثاني قبل الميلاد ، واشهر هذه الجداول ، هي جداول الملوك السومريين التي ذكرت اسماء وسني حكم الملوك الذين تعاقبوا على حكم البلاد منذ أقدم العصور السابقة للطوفان وحتى تاريخ تدوينها (9).

إذن لا شك في القول ، ان الوثائق والآثار مصدرا اوليا للتاريخ ، من خلالها كان البحث جاريا لمعرفة الوعي المبكر والاحساس بالتاريخ ، فقد شهدت أقدم العصور التاريخية تسجيل احداث بالرسم او النقش على الحجر ، ومع تطور الحضارة وازدهارها اخذ التاريخ يشكل أساسا جوهريا في تسجيل الاحداث واصبح بمثابة السجل الذي يحفظ الاحداث والأفكار والأعمال ، ومن خلال تتبع مسيرة الحضارة الإنسانية ، يمكن القول ان بداية التاريخ ، الذي شكل الحضارة ، كان عبارة عن صراع بين الانسان ومحيطه لغرض ادامة الحياة . وان واقع الحياة الانسانية يمثل أساس التاريخ ومادته على الرغم من ان التاريخ لم يأتي وصفا معبرا للحادثة ، إنما جاء تعبيراً عن علاقة تبادلية بين الواقع كتاريخ وبين الفكر كتصور شمولي ، ويمكن تحديد ذلك من خلال تحليل

8 - الجابري ، علي حسين . فلسفة التاريخ في الفكر العربي المعاصر ، جدلية الأصالة والمعاصرة ، القسم الأول ، وزارة الثقافة والإعلام ، دار الشؤون الثقافية العامة ، (ب،ط) ، بغداد ، 1993 ، ص13. وللمزيد انظر : كريم ، صونيل ، من ألواح سومر ، تر، طه باقر ، مكتبة مثنى الخانجي ، (ب،ط) ، بغداد ، 1957 ، ص80-123 .

9 - بنظر : الملاح ، هاشم يحيى . المفصل في فلسفة التاريخ . دار الكتب العلمية ، ط1، بيروت ، 2007 ، ص47.

النصوص القديمة (10) وعلى الرغم من ان المدونات كانت مدونات عامة لم تنسب كتابتها الى كاتب معين او مؤرخ متخصص ، فإن تاريخ العراق القديم لم يخل على ما يبدو من وجود مثل هؤلاء الكتاب . فقد أشير الى وجود مؤرخ عراقي اسمه (بروعشا) عاش في القرن الثالث قبل الميلاد . وقد اسماه اليونان (بيرسوس) . وقد الف كتابه في تاريخ بابل باللغة اليونانية ، وكان هذا الكتاب مصدرا مهما للمؤرخين في العالم الإغريقي – الروماني وذلك لندرة المصادر الاخرى . وفي بلاد وادي النيل فإننا نلاحظ ان الوعي التاريخي لدى المصريين القدماء تمثل بوضع التقويم الشمسي في نحو سنة 4236 ق.م. وكان هذا التقويم يقوم على أساس تقسيم السنة الشمسية الى ثلاثمائة وخمسة وستين يوما . وفي دلالة الوعي التاريخي أيضا لدى أهل وادي النيل ، انهم للفترة ما بين 3400 ق.م. – 2700 . وفي احدى الحوليات التي اشتهرت بأسم (بالرمو) حيث طرأ بعض التغير في عملية تمييز السنين والتعرف عليها ، عندما اعتبر عهد كل ملك من الملوك فترة مستقلة بذاتها . وكذلك تشير المصادر الى وجود مؤرخ مصري عاش في القرن الثالث قبل الميلاد ، وكان معاصرا للمؤرخ العراقي بروعشا ، وقد عرف بأسم مانيتو (11)

وفي نفس السياق ، فإن من المحاولات القديمة لتدوين التاريخ ، تلك التي قام بها الكاهن المصري القديم مانيتون Manetho الذي عاصر بطليموس الأول ، وبطليموس الثاني . ووضع تاريخا لقدماء المصريين ، استمدت مادته من مصادر مصرية قديمة . وكان ذلك نظام الحوليات اي تدوين الحوادث وترتيبها تاريخيا عام بعد عام . وللأسف فقد مؤلف مانيتون هذا ، فلم تبقى منه الا نبذ قليلة . وأيضا فقد كتاب آخر لمؤلف بابلي أسلفنا اسمه هو بيروسوس Berossus ، عاش حوالي 250 ق.م ، كتابه تاريخ بابل باليونانية مستندا على مصادر بابلية قديمة . وقد ضاع مؤلفه ايضا ولم تصلنا منه الا نبذ بسيطة متضمنة في بعض الكتب الأخرى . وحذا بعض الأشوريين ، والعبرانيين حذو المصريين والبابليين في هذا المجال فكتبوا عن تاريخ آشور وبابل ، وهذه الكتابات انما تعبر عن محاولات في دراسة التاريخ ، من خلال جمعه والنظر اليه بنظرة كلية ، والبحث في الأسباب

10 - ينظر : الدليمي ، حامد حمزه حمد . فلسفة التاريخ والحضارة . دار الطيف للطباعة ، (ب،ط) ، واسط ، 2004 ، 39-40 .

11 - ينظر : الملاح ، هاشم يحيى ، المفصل في فلسفة التاريخ . المصدر نفسه ، ص48-49.

التي أدت الى نتائج يعيشونها ، وسلطوا الضوء على الاهتمام بمصادر تاريخهم والتي تمثل ماضيهم وحاضرهم في الوقت ذاته (12)

ولعل الأسطورة ، هي ابرز مصادر كتابة التاريخ ، ولعلها ايضا من ابرز مصادر تفسير التاريخ لديهم، فقد شغلت موقعا بارزا في الحياة الفكرية والروحية لأمم العالم القديم . وكان للأساطير علاقة وثيقة بالتاريخ لما تضمنته من مادة تاريخية أولية ، وتفسير لحوادث التاريخ . ويمكننا القول ان النمط القصصي الذي تميزت به الأسطورة كان الخيط الأول في لحمة التاريخ ، ويعكس طبيعة العلاقة الجدلية التي تربط الأسطورة بالتاريخ ، ويمنح التاريخ أهمية بوصفه عنصر من العناصر المكونة للأسطورة ، وأداة اعتمدها الأسطورة للإفصاح عن طبيعتها ، ومكوناتها وغاياتها ، وعلى الرغم من ان العلاقة وثيقة بين الأسطورة والتاريخ ، فأنها تبقى ، تعكس ثنائية متلازمة ينطبق عليها تعريف (العلاقة الجدلية) الذي يذهب الى انها علاقة بين ثنائيات متناقضة يستدعي بعضها بعض . فالأسطورة والتاريخ ، بينهما نوع من التعارض ، ولكنه ليس تعارضا مفرقا ، إذ ان هناك مستوى في العلاقة الوسيطة المشتركة بينهما (13)

وهذه العلاقة بين التاريخ والأسطورة ، انما تسعى للكشف عن فكرة التطوع الإنساني الدائب الى الكشف عن بواعث الأحداث التاريخية والرغبة في التنبؤ بسيرها والتحكم في مصيرها ، كما انها لا تخلو من محاولة للعثور على معنى لحياة الانسان ، والوضوح . ان هذه الأساطير خلصت الى ان الالهة هي التي تتحكم في طبيعة الحوادث التي تمر بها البشرية عبر تاريخها ، " والأسطورة كانت تتصور انجازات الالهة والكائنات العليا ومشيئتها ، على انها وراء أعمال البشر ، وكانت الأساطير أحيانا تفسر حوادث التاريخ تفسيراً بطولياً ، من خلال دورانها حول مؤسس السلالات الحاكمة ، وحول ملوك الماضي السحيق ، وتأثيرهم في توجيه مسار التاريخ من خلال حروبهم وحملاتهم العسكرية وأعمالهم الأخرى ، فكان سرجون الاكدي ، مثلا يصور من خلال تلك الأساطير ، كأنه

12 - ينظر : هرنشو ، علم التاريخ ، تر، عبد الحميد العبادوي ، (ب، ن) ، (ب، ط) ، القاهرة ، 1937 ، ص16 .

13 - ينظر : النجار ، جميل موسى ، فلسفة التاريخ ، مباحث نظرية . المكتبة العصرية ، ط1، بغداد ، 2007 . ص120 .

ملك شبه الأسطوري ، خلال الألف الثاني قبل الميلاد . وأسطورة الطوفان عند السومريين والبابليين ، كانت تتضمن تفسيراً لنهاية التاريخ ، من خلال تفسير التاريخ البشري ، والحديث عن نهايته التي أدت إليها تصميم الآلهة ومن ثم هلاك الجنس البشري " . (14) وبهذا فقد "وكانت الأسطورة في حضارات الشرق القديم ، تمثل العلم البدائي أو التاريخ الأولي " . (15)

ودلالة قدم الأسطورة ، ان الانسان لما بدأ يبحث عن اصل الأشياء عندئذ وجد أصلاً أسطوريا ولم يجد أصلاً تاريخياً ، كما وجد فيها المحاولات الأولى التي تبين الترتيب الزمني للأشياء والأحداث ، ومعرفة انه ليس للزمن الأسطوري سياق محدد وانما هو زمن أزلي ، وبهذا المعنى يرى ديوارنت ، نقلاً عن الملاح " ان تقسيم الأيام الى ماض وحاضر ومستقبل عمل من صنع المؤرخين ، اما الزمن فلا يعرف هذا التقسيم " . (16) وهكذا فإن الأسطورة تتميز على التاريخ ، من وجهة نظر كولد ليفي شتراوس **K.L.Shetraows** من خلال زمنها غير المحدد ، اذ هي تفسير الماضي والحاضر والمستقبل ، في حين قد يقتصر التاريخ على حوادث حصلت في زمن غابر بعيد ، مما يمنح الأسطورة ، كما هو واضح ، شمولاً وأصالة . فالأسطورة تهدف الى الكشف عن الثوابت ، ولا تسعى بشكل أساسي للتعرف على تتابع الحوادث ، مما جعلها تستمر في حياتها حتى انبثاق السرد التاريخي ، وتتعايش مع التاريخ ، في كثير من الأحيان ، من دون ان تتجاوز خصوصيته ، لان لكل منهما هدف خاص به ، وان تحديد الأهداف هذه جعل لكل منهما مرتكزاته التي ينطلق منها ، على الرغم من الأخذ في نظر الاعتبار ، إننا لا نهمل أبداً ان الأسطورة هي المصدر الأول لكتابة التاريخ ، فعندما شرع المؤرخ ليكتب تاريخاً ، كان بحاجة الى مادته الأولى التي يستقي منها الأخبار عن العصور السالفة ، فما كان إمامه الى الأساطير القديمة ، التي ضمت بين أجوافها أخبار الأولين . وهكذا كان المؤرخ البابلي والمصري القديم ، يقدم أروع الصور الفنية

14 - الملاح ، هاشم يحيى ، المفصل في فلسفة التاريخ ، المصدر السابق ، ص126.

15 - ارنست ، كاسيرر ، مدخل الى فلسفة الحضارة الانسانية . تر ، إحسان عباس ، دار الاندلس ، بيروت ، 1961 ، ص95.

16 - ينظر: الملاح ، هاشم يحيى ، وآخرون ، دراسات في فلسفة التاريخ ، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر ، (ب،ط) ، الموصل ، 1988 ، ص49 .

ذات الجمالية العالية ، متشعبا في أبعادها ، مستندا على أسطوره الممتلئة بأحداث أسلافه ، والتي عبرت عن عمقا فكريا أصبح فيما بعد تأملا فلسفيا ، قامت عليه نظريات في التاريخ والفلسفة. (17)

وفي الشرق ايضا ، لا بد من الإشارة الى مساهمات الصينيين في هذا المجال ، إذ أولى الصينيون التاريخ السياسي للدولة عناية كبيرة ، فألفت في القرن السابع قبل الميلاد لجنة في العاصمة لتسجيل الأحداث المهمة لديهم وهي تشمل تاريخ اسر خاصة وملخصات حولية ومذكرات مختلفة الأنواع وتراجم وسير . وقد لوحظ في هذه الكتابات انها لم ترتفع عن مستوى الطريقة الحولية في تدوين التاريخ ، كما ان المؤرخين الصينيين ، لم يضعوا هذه الكتابات موضع النقد والتمحيص . (18) ويرى ويدجيري " ان تاريخ الصين لا يشتمل فقط على الحوليات ، وانما على مجموعة ضخمة من الوثائق ، ترجع الى عصور سحيقة في القدم ، لكن يندر التبصر فيها من ناحية طبيعة التاريخ ومغزاه ، لكن الغرب انبهر وتأثر أعمق التأثير بآثار الفن في الصين ، وبرسومها وبنقوشها على العاج، لكن ؟ المغزى الأساسي للتاريخ لدى الصينيين ، ينشأ على وفق وانغ يانغ - مينغ ، على الاهتمام الوحيد والجدير بالاعتبار ، هو ان يبذل المرء وسعه ليصير حكيما ، اي ليحقق الشخصية الأخلاقية والمسلك الاجتماعي الذي يوصي به ، المثل الأعلى الكونفوشي . ولا يعني هذا حياة تأملية (كما يعتقد بان البوذيين يعلمونه) وانما حياة فاعلة في الوظيفة المنوطة بكل فرد " . (19)

المطلب الثاني : التاريخ عند اليونان والرومان .

" لقد شغف الاغريق بالبحث التاريخي ، أو بما يسمونه باليونانية Istoría أي تاريخها حتى برزوا عن غيرهم في هذا الميدان . فكتب هكتيوس Hecateus في القرن السادس ق.م عن اصل الشعب الإغريقي . كما كتب هيرودوتس Herodotus الذي يلقب بأبي التاريخ في القرن

17 - ينظر : النجار ، جميل موسى ، فلسفة التاريخ ، المصدر السابق ، 124 .

18- ينظر : ادم ، علي ، تاريخ التاريخ ، (ب،ن) ، (ب،ط) ، القاهرة ، 1977 ، ص14-15.

19 - ويدجيري ، ج. البان ، المذاهب الكبرى في التاريخ ، من كونفوشيوس الى توينبي ، تر ، ذوقان فرقوط ، دار القلم ، ط2، بيروت ، 1979 ، ص38-39 .

الخامس ق.م ، عن النزاع بين الاغريق والفرس ، وبعده كتب ثوكوديديس Thucydides ، عن حرب البلبونيز بين أثينا وإسبارطة " . (20)

وكان التدوين التاريخي عند الاغريق قد اتخذ شكل الأسلوب الملحمي . ويذكر في هذا المجال الشاعر الإغريقي هوميروس ، بصفته ملهما لامته ، وقد اخذ عنه المؤرخون تمجيد البطولة وروح الكفاح الذي يدفع الانسان الى التفوق على من حوله . وعلى الرغم من امتزاج التاريخ بالأسطورة في بواكير التدوين التاريخي عند الاغريق ، الا ان السمة العقلانية تبلورت من خلال رؤية ، تميز بها المؤرخ الإغريقي عن المؤرخ التوراتي ، فنجد ان الكاتب الإغريقي اعتمد على تصور مسار الأحداث في ضوء القول بتحزب الالهة للإنسان ومسؤولية الأخير عن الأحداث والوقائع التاريخية . وبهذا اخذ التاريخ بعدا إنسانيا جديدا على يد الإغريق . (21)

والدليل على ذلك ، ان هوميروس ، صور لنا من خلال الإلياذة ، ان الإله (زوس) بأنه لم يكن يمتلك القوة الكافية ، مما يدل لنا على مواقف يقوم بها البشر ، وليس الآلهة التي ينبغي لها ان تتصف بقوى قاهرة جبارة ، بعيدة عن العواطف والنزعات الشهوية التي يتصف بها البشر . وهذا يشير إلى ان الأساطير التي تدور حول الآلهة ، ان هي إلا رؤية إنسانية قدمها الإنسان ، تتحدث عن آلهة تتشابه من حيث التصرفات ، وبعض الصفات . متخذة لها صورا ورموزا وأفكارا تنطبق على الشر تماما . (22)

بيد ان الباحث ، لا يرى في دراسة تاريخ اليونان ، على انه يستعرض سردا لأحداث تاريخية تدور رحاها حول قصص سردية لوقائع حربية ، أو دراسة أخبار ملوك أو أباطرة ، حكموا وزال حكمهم ، فهذا لا يشبع حاجة الباحث عن تاريخ حضارة مثل حضارة اليونان ، أثرت في الحضارات الأخرى ، وقبل منها ، هي كذلك قد تأثرت بحضارات الشرق ، فأن التاريخ اليوناني ،

²⁰ Collingwood. R.G. ; The Idea of History (Oxford. 1946.pp.33-36 .

²¹ - ينظر : الملاح ، هاشم يحيى ، وآخرون ، دراسات في فلسفة التاريخ ، المصدر السابق ، ص32 .

²² - ينظر : المخزومي ، عادل ، مدخل الى فلسفة التاريخ ، مؤسسة مصر مرتضى للكتاب العراقي ، ط2 ، القاهرة ، 2010 ، ص16.

كانت تغلو سمائه حركة عقلية ذات طابع تأملي ، امتزجت بالأسطورة التي طوعها مفكرهم ، والتي احتضنت ماضيهم بكل تداخلاته ، والدليل في ذلك ان هذه الحركة العقلية في التاريخ اليوناني ، انها أنتجت طابعا جديدا في التفكير اليوناني ، تميز في انه ترجم ماهو ليس عقلي الى محاولة عقلته . " فما التفكير وتطور نحو الاستفادة القصوى من الظروف الواقعية التي يحيها الإنسان . فتوجه الفكر نحو الاهتمام بالوجود الطبيعي ، من خلال نهج سبيل التفكير القائم على الملاحظة والتحليل العقلي والابتعاد رويدا عن الارتكاز إلى الفكر الأسطوري على الرغم من ان التفكير بالنسبة للإنسان كان نشاطا شاقا وبعيدا عن النهج الطبيعي " . (23)

وهذا أنتج فكرا اختلطت فيه الأسطورة بالاستنتاجات العقلية المنبعثة من التفكير في الواقع الموضوعي المادي الذي يحيها الإنسان وهكذا جاءت النتاجات الأدبية المبدعة مع الإلياذة والاونيسة لهوميروس ، في الثلث الأول من الألف الأول قبل الميلاد ، لتعبر خير تعبير عن هذا الاختلاط وقد كونت أول إبداعات الفكر اليوناني في آسيا الصغرى (24)

هذا أدى الى حدوث أول تمرد على الطبيعة الأسطورية للتاريخ ، نادت به مدرسة هوميروس ، الذي ادخل في العمل التاريخي بعدين منهجين :

الأول : تم تعريفه بـ (العقلانية) وهو الالتزام بتدوين الأحداث بحسب واقعها ، بعيدا عن الأساطير والخرافات .

23 - توينبي،ارنولد ، الفكر التاريخي عند الإغريق ،ترجمة لمعي المطيعي ، مراجعة محمد صقر خفاجة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط2، القاهرة ، 1990 ، ص39.

24 - ينظر : عبد الحي،عمر،الفكر السياسي في العصور القديمة.مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ،ط2،بيروت،2006،ص78.

والثاني : (العالمية) والمراد بها : الاهتمام بتاريخ الأمم الأخرى وتدوينه الى جنب التاريخ الخاص.(25) واذا كان ثمة علامة مضيئة في قدم الفكر التاريخي عند اليونان ، هي ما ابدعه هيرودوتس في كتابه (التاريخ) والذي تبنى فيه خصائص منهجية جديدة في الكتابة التاريخية . وتميز أسلوبه بالكتابة بثلاثة مزايا رئيسة هي :
اولا : اهتمامه بتاريخ الأشخاص وحفظ المآثر.

ثانيا : تدوين الحوادث او القصص التاريخية ، طبقا للواقع ، بعيدا عن الأسطورة .

ثالثا : الاهتمام بالتاريخ العالمي ، وتجاوز التاريخ القومي والوطني المجتزأ .

ويبقى كتابه في التاريخ أهم المراجع لمعرفة أخبار الأمم القديمة . وهو عبارة عن تسعة كتب في مجلد واحد اسماه (ايستوريا) وهي كلمة يونانية تعني البحث والاستفسار من اجل الفهم .(26)

ويذهب ارنولد توينبي ، في أهمية هيرودوتس ، الى ان " نتائج أبحاثه لها هدفان ، احدهما إنقاذ تاريخ الجنس البشري من النسيان ، ثم اثبات ان الأعمال الرائعة التي اضطلع بها الهيلينيون والشرقيون سوف تتمتع بما هي أهل له من شهرة – خاصة تلك التي أدت الى صدام فيما بينها " .(27) والمنتبع لحركة العقل في الفكر التاريخي اليوناني بإمكانه ان يلاحظ ، ان عملية الوجود كانت تخضع لدورة تاريخية ، وهذا ما استدعى المفكرين الأوائل من الفلاسفة ان يتأملوا في طبيعة خلقهم ، وهذا ما عبر عنه هرقلطس ، في قوله ، كما صرح به ويدجيرى ، " ان جميع الأمور

25 - ينظر : عبد الحميد ، صائب ، علم التاريخ ومناهج المؤرخين . مركز الغدير للدراسات الإسلامية ، ط1، بيروت ، 2001 ، ص19 .

26 - ينظر : قاسم ، عبده قاسم ، تطور مناهج البحث في الدراسات التاريخية . ، مجلة عالم الفكر ، المجلد 20 ، العدد 1 ، ص198-199 .

27 - ينظر : توينبي ، ارنولد ، الفكر التاريخي عند الاغريق . تر ، لمعي المطيعي ، مراجعة ، محمد صقر خفاجة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط2 ، بيروت ، 1990 ، ص43 .

الإنسانية والالهية تنشأ بالتبادل من الأعلى الى الأدنى ومن الأدنى الى الأعلى " ، في حين نرى ان بارمنيدس ، الذي ذهب الى ان التاريخ لا يتكون إلا من تغيرات عارضة من صميم حقيقة وحيدة . وامبادوقلس ، أكد على ان الرأي كان يرمز بالحب والحق الى مبدأي الحقيقة الفعالين ، وان هذين المبدأين يفرضان نفسيهما بالتناوب ، لكن كانت الدورة تحسم نفسها ، ويتحول احدهما في الآخر وينموان عندما يأتي دورهما فيصيران تارة هذا وتارة ذاك (28)

وهذا أفلاطون ، قد عد الزمان بمعنى (الدهر) تارة وبمعنى الدورة الفلكية المحسوبة بمقياس السنة الكبرى تارة أخرى ، حين وظف المفهوم البابلي للرقم (60) ومعادلة (الشباب) الدوري ، في تحديد (مدة الدورة وهي (10800) سنة كحاصل ضرب (30 الى 360) . لتؤشر لنا (العصر الذهبي) الذي عاشته البشرية في الماضي السحيق . وان اختصت محاوره طيماوس ، في تقديم تفسير علمي ، للزمان والفلك ، لكن أفلاطون (على رأي Barnes يقدم محاولة لتفسير التاريخ جاءت موزعة بين فكرة (الماضي الذهبي) و(فكرة النكوص) التي تحدث عنها هزبيود . اما أرسطو فقد عد الزمان مقياس حركة الأشياء النازعة الى كمالاتها على هذه الأرض ، حتى تبدو فيه الأحداث ، مدفوعة وراء غاياتها على أساس فكرتي (التقدم) و (التأخر) الفلسفتين . وكاد يمس القضية التاريخية ، مسا مباشرا وهو يبحث في الإنسان والطبيعة . فكل شيء عنده يتغير في زمان وصيرورة ، بعد ان جعل الزمان مشابه للأجيال المتعاقبة ، من الناس ، ليس فيها انقطاع ، ولكنها اذا ولدت بلا انقطاع فأنها تهلك بلا انقطاع أيضا ، أنها جريان زئبقي لا يعرف إلا بالحوادث الجسيمة التي اضطرب فيها أرسطو، بين القول بالعامل الفلكي (الكواكب) وتأثيرها في التاريخ وبين القول بالقطيعة بين الحوادث الأرضية والأسباب العلوية ، ويبدو ان مسار التاريخ موجه في جوهره توجيهها معينا – غائيا ، بسبب تطبيقه قواعد بيولوجية ، على تكوينات تاريخية ، تعكس سعي البشر لتحقيق أهدافهم (29).

28 - ينظر : ويد جيرري ، ج ، ألبان ، المذاهب الكبرى في التاريخ ، المصدر السابق ، ص 80 .

29 - ينظر : الجابري ، علي حسين ، فلسفة التاريخ في الفكر العربي المعاصر ، المصدر السابق، 232-233.

وتمثل الوعي التاريخي عند الرومان ، من خلال تدوينهم الأحداث التاريخية وفق أسلوب الحوليات ، اعتمادا على السجلات الرسمية ، التي كانت تعني بها المؤسسات الدينية ، وتناولت وقائع الانتصارات والهزائم وتعاقب الحكام والأحداث المهمة الأخرى ، وبخاصة تلك التي ترتبط بالمعجزات والاحتفالات الدينية . وكان من ابرز ملامح فهم التاريخ عندهم هو استثمار التاريخ تربويا للأغراض السياسية . كما عد المؤرخ نفسه صاحب رسالة وطنية ، ودونها الحقيقة التي يمكن تجاوزها عند الضرورة .(30)

ونلاحظ ان بوليب ، الذي تولى تأليف ما كان يمثل في نظره ، (تاريخا شاملا) وللوصول الى نظرة دقيقة في التاريخ ، كان يرى انه ينبغي دراسته جملة ، وفي كل ما يمكن ان يؤول اليه . وأكثر ما كان يهيمه هو ان يدرس كيف اخضع الرومان جميع العالم المسكون تقريبا لحكومتهم الوحيدة ، وكان يعطي تسلسل الأخبار التاريخية قيمة براغماتية . فيقول : كما أوردها ويدجيرى " ما من شيء أصلح لتقويم سلوك الناس من معرفة الماضي " وكانت وجهة نظره هي ما تراه البصيرة العامة التي تنبذ الأوهام او تزديها . وهكذا لم تكن الصدفة تظهر له في ملامح الهة الصدفة ، التي يحبها كثير من الرومان . ولكن الصدفة هي (طبيعة الأشياء) الظروف الواقعية في عصر معين ومكان معين . وهذه الظروف تكون ملائمة او غير ملائمة ، وفي حالة كونها غير ملائمة ، فإن الناس يستطيعون معارضتها وأحيانا يستطيعون معاكسة آثارها . وكان يعتبر سيطرة الرومان الشاملة مرسومة من الله . فإن هذه السلطة على العالم قد حصل عليها الرومان بفضل تربيتهم لأنفسهم عبر غارات واسعة ومجازفات خطيرة .(31)

وكانت آراء بوليب، واضحة في تقدم علم التاريخ ، والتي يمكن ملاحظتها من خلال تشجيعه للأساليب المثالية للدراسة المنهجية السليمة . فضلا عن ذلك فإنه أكد على أهمية معرفة الجغرافيا

30 - ينظر : هورس ، جوزف ، قيمة التاريخ ، تر ، الشيخ نسيب وهبة الخازن ، (ب،ن)، (ب،ط)،بيروت، 1964 ، ص27-29.

31 - ينظر : ويدجيرى ، ج ، ألبان ، المذاهب الكبرى في التاريخ ، المصدر السابق ، ص91.

والطوبوغرافيا للمؤرخ وأهميتها في دراسة التاريخ ، وهذا ما تبناه لاحقا مونتسكيو (32) في تفسيره الجغرافي للتاريخ والحنمية الجغرافية . كذلك فإنه ، يعد ، رائد استقرار خلفية الأحداث وربطها بمجريات الحدث ونتائجها ، فبدون هذا الربط ستكون عملية فهم التاريخ ، مجرد فهم أدبي خالي من العبرة ، ولا مستقبل لنتائجها ، على الرغم من استمتاع الأذنان وانتعاش الأذهان بها (33)

وهذا الفهم الأدبي ، شكل تصورا جديدا للوعي التاريخي عند الرومان ، اخذ بعدا جديدا لم يكن معهودا في تاريخهم ، من ناحية الاعتماد على المؤثرات البلاغية . وهذا ما عده (شايلد) إضعاف للحقيقة التاريخية في مسار التاريخ عندهم ، لان المؤثرات البلاغية تؤدي الى إهمال الربط بين أسباب الأحداث او مقدماتها ونتائجها ، وهذا الإهمال إنما حكمته ظروف الاهتمام بالشكل البلاغي . وبالإمكان بهذا الصدد ان نشير الى ان شيشرون ، وهو أعظم خطباء روما قد عبر عن هذا الاتجاه حين عرف التاريخ بأنه (واجب الخطباء المثمر ومن شأن الخطباء أساسا) . وهذا يحيلنا الى القول بأن المناخات الفكرية لذلك العصر كانت قد سادتها روح الخطابة ، كما برز في اليونان السفسطائيون ومحاولتهم إشاعة فن البيان ، واعتباره أساس الحقيقة ومصدرها . ومن الجلي ، ان الرومان كانوا قد تأثروا في الكثير من مظاهر الحضارة اليونانية ، فربما كان انتشار الآداب والفنون في اليونان قد امتد هو الآخر كمظهر من مظاهر التاريخ اليوناني الى الرومان (34)

32 - هو شارل دي سوكوندا مونتسكيو ، يعد مفكرا وسياسيا واجتماعيا وفيلسوبا ومؤرخا ، انحدر من اسرة عريقة ونبيلة ، ولد في قصر حصين بالقرب من دي لا بريد بالقرب من بوردوا في عام 1689 ، وتوفي عام 1755 ، يعد من افراد الطبقة الحاكمة ، من اشهر مؤلفاته ، روح القوانين ، وتأملات في تاريخ الرومان واسباب النهضة والانحطاط ، ورسائل فارسية . ينظر : سعفان ، حسن شحاتة ، روح الشرائع لمونتسكيو ، مجلة تراث الانسانية ، مج1 ، مطبعة كوستا توماس وشركاؤه ، القاهرة (ب،ت) ، ص699 ، وللمزيد انظر : العجلان ، احمد ، التوظيف السياسي لنظرية البيئة الجغرافية بين ابن خلدون ومونتسكيو . دار رسلان ، ط1 ، دمشق ، 2009 ، ص143 . وانظر ايضا : تسمير ، روبرت ، في صحبة الفلاسفة ، ج2 ، تر ، عبد الله محمد ابو هشة ، دار الحكمة ، ط1 ، لندن ، 2012 ، ص134 . و : معلوف ، لويس ، المنجد في الاعلام . مؤسسة انتشارات دار العلم ، ط26 ، طهران ، (ب،ت) ، ص588 .

33 - ينظر : السعيد ، حميد خلف ، دروس في فلسفة التاريخ . دار أبجد ، (ب،ط) ، بغداد ، 2007 ، ص21 .

34 - ينظر : شايلد ، جوردن ، التاريخ ، تر ، عدلي برسوم عبد الملك ، (ب،ن) ، (ب،ط) ، القاهرة ، 1958 ، ص54 .

بيد ان هذا لا يعني إنكارنا لجهود الرومان الساعية لإقامة الدليل على أصالة فكرهم التاريخي ، وان فكرهم المعني بالتاريخ ، كان يروقه ان يذكر (وقائع) مستخلصة من مجرى الحوادث في وضوح من الحدود . وان المؤرخين الرومان قد تمكنوا من إيجاد علاقات بين الأساطير الدينية والإمكانات البشرية ، تلك الأساطير التي كانوا يملكونها منذ وجودهم ، والتي أعطوها مظهرا تاريخيا حقا ، حتى انهم جسدوها في التاريخ ان صح التعبير ، بينما نرى ان الأمر مختلف عند غيرهم من الشعوب ، الذين اخرجوا الحوادث البشرية من نطاقها وحملوها الى صعيد عجيب خارج حدود الطبيعة . وقد عمد الرومان ، منذ مطلع وجودهم الدولي ، الى العناية بالتاريخ فأسسوا في روما (مخازن وثائق) عهدوا بالعناية بشأنها الى مؤسسات رهبانية أسموها كليات . ومن هذه الكليات كانت تصدر اليومية – الروزنامة – المشتملة على (أيام الشؤم) و(أيام الفأل) تبعا لما كانت تذكرهم به تأريخ الأيام من حوادث مشؤومة او أخرى سعيدة . (35)

وبهذا يكون للتاريخ عند الرومان شخصية مركزية ، فكانت روما تلك الشخصية ، اذ انها سبب تاريخهم نفسه . ومنذ عهدهم أصبحت كتابة التاريخ ، قيامه بوظيفة من وظائف الدولة ، لأنه قد أعطى لكل مؤرخ ان يؤمن لشعبه عناوين نصره ، وكنزه من الحكمة السياسية . ولا شك ان هذا الاهتمام النفعي استطاع ان يطر بروح البحث الحقيقية ، وهذا التوق الى المعرفة الذي لا بد منه بكل مؤرخ حقيقي . وهكذا صوبت روما كل انتباهها الى ذاتها ، فاستطاعت ان تدمر الشعوب واحدا بعد الآخر ، غير مبقية منها إلا أثرا بسيطا في حينها . (36)

وفي إطار الوعي التاريخي أيضا ، والذي يقابل فلسفة التاريخ ، قبل ان يصطلح هذا الاسم . يبدو ان سيطرة الفكر الديني المسيحي لم تكن وبالا محظا في مجملها على التاريخ ، ذلك ان الافق الفكري الضيق الذي هيمن على عملية الوعي التاريخي ، من خلال كتابة التاريخ أواخر العصر الروماني ، ووظيفها لإغراض محددة ، كان يتسم ، في الوقت نفسه ، بنظرة ذات أفق أكثر رحابة

35 - ينظر : هورس ، جوزف ، قيمة التاريخ . المصدر السابق ، ص30.

36 - ينظر: يزبك ، قاسم ، التاريخ ومنهج البحث التاريخي . دار الفكر اللبناني ، ط1، بيروت ، 1990 ، 20-21.

تجاه التاريخ مستمدة في إطارها العام من المبادئ الأساسية للديانة السماوية – كالخالق ومفهوم الحياة على الأرض والبعث والحساب – رؤيتها لمسيرة التاريخ البشري . وقد تمثلت هذه النظرة بما يمكن ان نعهده (فلسفة التاريخ) تستند الى اصول المسيحية والفكر المسيحي معا ، صاغها القديس أوغسطين 354- 430 م ، اشهر آباء الكنيسة اللاتينية في كتابه (مدينة الله) ، وحاول فيها ان يتأمل مسيرة التاريخ البشري على وفق الدين وتصورات الفكر الديني ليفسر الواقع ويستشرف المستقبل ، وهو يقابل فكرة التنبؤ التاريخي في فلسفة التاريخ .⁽³⁷⁾

المبحث الثاني : الظهور وتطور المصطلح .

المطلب الاول : ظهور فلسفة التاريخ .

ملامح الفكر التاريخي ، وتطوره على وفق ما تم طرحه ، لدى مفكري حضارات الشرق القديم ، وحضارة اليونان والرومان ، ما زال قبعاً على وجهه ، ولم يتسنى له النظر الى الأفق البعيد ، رغم اعتباره يمثل نقلة نوعية في مناخات الفكر العام ، وتطوره ومساهمته في بلورة الفكر الفلسفي ، فما زالت الأسطورة تلقي بظلالها في معظم النصوص التاريخية ، ولم تتفك الحركة الأدبية عن إضفاء الطابع البلاغي في رؤية التاريخ ، مما أدى الى تشكيل صورة ضبابية تسمو على الواقعية ، وهذه الصورة انما هي ناجمة عن ضياع ماهو طبيعي ، من ما هو ليس طبيعي ، فاختلطت فكرتين ، وضاع المسار التاريخي الذي أدى الى فقدان الغاية ، ففكرة التاريخ ذو المصدر الأسطوري حاضرة في الأذهان ، تقابلها ظهور الديانات ، والتي هي الأخرى قدمت مفهوماً جديداً عن التاريخ . إلا ان الإدراك التاريخي لدى العقل القديم ، ضاع بين هاتين الفكرتين . لكن ؟ ما قدمه كل من القديس أوغسطين ، والمفكر الاجتماعي ابن خلدون ، حول رؤية جديدة للتاريخ ، ذا مسار وغاية واضحين ، يتيحان لنا ، تجسيد فكرة ظهور فلسفة التاريخ ، كمدخل لهذا المطلب ، موضوع الدراسة .

37 - ينظر : النجار، جميل موسى ، فلسفة التاريخ ،المصدر السابق ، 64-65.

أ - القديس أوغسطين . (38)

تمثل نظرية (العناية الإلهية) ، عند القديس أوغسطين مدخل لدراسة الفكر التاريخي ، والذي تطور في عصر التنوير الى (فلسفة التاريخ) ، وهو أول من كتب في فلسفة التاريخ ، حيث ألف كتابه (مدينة الله) على الرغم من انه لم يكن مؤلفا او فيلسوفا ، وانه كان رجل لاهوت ، وقد عرض آرائه حول مسيرة التاريخ وغايته ، في إطار تصوراته الدينية وتفسيراته للكتاب المقدس عند المسيحيين .⁽³⁹⁾ وهو يرى ، ان النبي ، هو الذي سيقلب الطمأنينة للمظلومين والمبتلين ، بإعلان حكم الله على الواقع بالهلاك ، وإعلان ما سيحل محله " أنا يوحنا رأيت المدينة المقدسة ، أورشليم الجديدة نازلة من السماء من عند الله " ، " ها هو مسكن الله والناس : يسكن معهم ويكونون له شعوبا " .⁽⁴⁰⁾ على ان اهم ما أتت به المسيحية الى التاريخ ، هو فكرة المساواة بين سائر الشعوب المسكونة ، اذ اخلت في العهد الجديد المدينة الانسانية العالمية محل شعب الله المختار في هذا العهد القديم ، وصار البشر اجمعين شركاء في مدينة الله دون تمييز بين لون او جنس ، طالما ان المعيار الوحيد هو الصلاح والتقوى ، ولقد كان خير من عبر عن هذا الاتجاه العالمي في تدوين التاريخ وفلسفته ، المؤرخ الشهير يوسبيوس القيساري ، اوائل القرن الرابع الميلادي . اذ حاول ان يكتب تاريخ للعالم كله منذ البداية تمهيدا لحجر الزاوية عنده الا هو مولد السيد المسيح .⁽⁴¹⁾

38 - القديس اوغسطين ، ولد عام 354 ومات عام 431 ، وهو فيلسوف من اصل جزائري ، ونجد ان معنى اسمه هو الملك الصغير ، عاش شابا مضطربا ، ثم اهتدى على مواضع القديس امبروسوس ، وحاول التوفيق بين العقل والايمان وقاوم البدع . للمزيد انظر : عبد زيد ، عامر ، التأويل اللاهوتي للتاريخ عند اوغسطين . ضمن كتاب فلسفة التاريخ جدل البداية والنهاية والعود الدائم . الرابطة العربية الاكاديمية للفلسفة ، اشراف وتحقيق علي عبود المحمداوي ، ابن النديم للنشر والتوزيع ، دار الروافد الثقافية - ناشرون ، ط1 ، بيروت ، 2013 ، ص81 .

39 - ينظر : الملاح ، هاشم يحيى ، المفصل في فلسفة التاريخ ، المصدر السابق ، ص214 .

40 - الكتاب المقدس ، العهد الجديد ، الإصدار الرابع ، (ب،ن) ، الإصدار الرابع ، ط30 ، (ب،م) ، 1993 ، ص404 .

41 - عبيد ، اسحاق ، معرفة الماضي من هيرودوت الى توينبي . دار المعارف ، ط1 ، القاهرة ، 1981 ، ص8 .

" وأوغسطين يرفض وجود الصدفة في أحداث التاريخ لان كل شيء مقدر من قبل العناية الإلهية ، كما ان الإرادة الإلهية لا تقيد قوانين الضرورة في الحياة . وهكذا فإن سير التاريخ الأرضي مسيرا ومحكوما من الله وفقا لما يحلو له " (42)

وهذا يشير ، إلا انه يرى ، ان التاريخ يخضع لإرادة الله ، وان المصادفة ، لا وجود لها في الكون ، فلا شيء يوجد في هذا الكون مصادفة ، لان الإيمان بوجود المصادفة يقود الى العبث والفوضى والاضطراب ، ولولا تدخل الله في توجيه مسار حياة الإنسان ، لما عمل الإنسان خيرا من التاريخ ، ولأصبح التاريخ دون غاية ، ويرى أوغسطين ، ان الشر دخل العالم بمعصية ادم ، وان الإنسان ذو نزعتين ، الأولى نزعة حب الذات الى حد الاستهانة بالله ، والثانية نزعة حب الله الى حد الاستهانة بالذات ، وهذه الرؤية انما تمثل اتجاها جديدا في الرؤية الى الله ، تتمثل في تحليل نوازع الإنسان السايكولوجية ، بعد ان عرفناها ، قبل أوغسطين تمثل املاءات الطبيعة ، التي تفرض صيرورتها على تكوين فكرة التاريخ ، وحتى الإنسان عندما كان يريد ان يتأمل أسرار الكون ، لا يجد غير بواعث الطبيعة لكي يستشهد بها .(43)

من هنا حاول أوغسطين ، إرساء معالم جديدة لنظرية العناية الإلهية ، على انها نوع جديد لفرض نمط ديني على خط سير الحركة التاريخية ، بوصفها هي التي تسير أحداث التاريخ الى غايتها ، وذلك في كتابه (مدينة الله) التي قامت فكرته على ان التاريخ يدور حول كل من المؤقت والابدي ، أي الدائم ، فانه ابدى ، وهو خالق الزمن ، ولا يجوز فهم الأبدى ولا تصنيفه زمنيا .(44)

والتاريخ عنده يسير في خط مستقيم من ادم الى مملكة الله النهائية ، منتهى المؤمنين ، وهو يرفض فكرة العود الأبدى ، لان المسيح صلب مرة ، وفدى البشر مرة واحدة ، وما له بداية ، له نهاية ، يقول : (بدأ الله خلق الإنسان والعالم) على انه فعل جديد ومن دون أي تغيير في الغرض

42 - ويدجيرى ، ج ، ألبان ، المذاهب الكبرى في التاريخ ، المصدر السابق ، ص148.

43 - ينظر : الدليمي ، حامد حمزه حمد ، فلسفة التاريخ والحضارة ، دار الطيف ، (ب،ط)، واسط ، 2004 ، ص133-134.

44 - ينظر : الشيخ ، غنمي ، فلسفة التاريخ ، دار الثقافة والنشر والتوزيع ، (ب،ط)، القاهرة ، (ب،ت)، 78.

والخطة الإلهية ، بل وفقا لخطة الأزلية وسينتهي الحال اليه لقبول الناس او رفضهم في مدينة الله بحسب إيمانهم .⁽⁴⁵⁾ ومن هنا قسم التاريخ البشري الى سبعة أقسام :

- 1- من ادم الى الطوفان .
- 2- من الطوفان الى إبراهيم .
- 3- من إبراهيم الى داوود .
- 4- من داوود الى الأسر البابلي .
- 5- من الأسر الى ميلاد المسيح .
- 6- من ميلاد المسيح الى أوغسطين (العصر الحاضر).
- 7- نهاية العالم يوم (الذي سيستريح فيه الله كما حدث في يوم السابع ، وسيمنحنا الراحة في ذاته).⁽⁴⁶⁾

وهنا تجدر الإشارة ، الى ان تقسيمه التاريخي هذا ، قد ارتبط من ناحية التاريخ بالأخلاق ، بالإضافة الى صبغته الدينية ، فهو قد ذهب الى ان الشر قد دخل العالم بمعصية ادم ، وهذه الإشارة انما تصنف تحت فئة الأخلاق المعيارية ، وقد أخذت بعدا تاريخيا بنى أوغسطين ، تصنيفه التاريخي على أساسه .

ولقد انتهى من خلال تفسيره الديني للتاريخ الى ان السلطة النهائية في قيادة المجتمع في المجالين الديني والسياسي ينبغي ان توضع في يد الكنيسة .فلا عجب ان غدا تفسيره للتاريخ هو التفسير

⁴⁵ - الالوسي ، حسام الدين ، الزمان في الفكر الديني والفلسفي القديم ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، (ب،ط)، 2000،ص134.

⁴⁶ - المزوري ، زاهدة محمد الشيخ طه ، اركولوجيا فلسفة التاريخ ،المسار التطوري لفلسفة التاريخ .دار مكتبة البصائر للطباعة والنشر والتوزيع، (ب،ط)، لبنان ، 2012،ص106.

الرسمي للكنيسة على مدى أكثر من ألف سنة . ولم يتعرض هذا التفسير للنقد والمراجعة إلا مع بدايات عصر النهضة في أوروبا . (47)

ويمكن القول ، انه قدم أول نظرية في فلسفة التاريخ تستند الى أسس لاهوتية مسيحية ، فظهرت منذ ذلك الحين تفسيرات للتاريخ وتصورات مختلفة لكيفية مسيرته تستند الى العقائد المسيحية في المقام الأول . وتركت هذه التفسيرات أثرها في الفكر الغربي طوال القرون الوسطى ، وحدثت من الاهتمام بالتاريخ والتدوين التاريخي الذي كان يقتصر في تلك الحقبة على (حوليات) و(تواريخ) لاتهمت غالبا بسوى تاريخ الكنيسة ورجال الدين وخوارق الطبيعة . (48)

ب – ابن خلدون . أتى ابن خلدون بعلم جديد ، لم يسبقه احد إليه هو (فلسفة التاريخ) ، وكان يدرك ذلك تماما ؟ وفلسفة التاريخ التي لم تظهر في أوروبا إلا بعد ذلك بعدة قرون . وكما أسلفنا الذكر ان التفلسف في التاريخ بدأ منذ القدم ، فنجد بعض آثاره في كتاب (السياسة) لأرسطو ، وكتاب (الجمهورية) لأفلاطون ، أما التعبير نفسه فلم يستحدث إلا في القرن الثامن عشر . (49)

وتقوم دراسة ابن خلدون ، للتاريخ من خلال اهتمامه في دراسة الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم ، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال . واعتبر هذه الدراسة هي المعول عليها لمعرفة التاريخ وأحداثه الماضية ، لبيان حضارة الأمة ، ومعرفة كل ما يتصل بها من مفاهيم وقوانين وسنن كانت مؤثرة في ولادتها ونموها ونهضتها ، ومن ثم ضعفها وتحللها وانهارها . ضمن هذا المنهج وجدنا ابن خلدون ، قد اختلف عن المؤرخين الآخرين الذين اهتموا لأثر الفرد والبطل ، بينما كان هو مهتما لتاريخ العمران الذي عنده هو الأساس في رقي الحضارات وسقوطها

47 - الملاح ، هاشم يحيى ، المفصل في فلسفة التاريخ ، المصدر السابق ، ص97.

48 - ينظر: النجار ، جميل موسى ، فلسفة التاريخ . المصدر السابق ، ص146.

49 - الخضيرى ، زينب محمود ، فلسفة التاريخ عند ابن خلدون ، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع ، (ب،ط)، بيروت ، 2009، ص54.

. وهذا التوجه في فكره ،قد جعل الباحثون والمؤرخون العقلانيون يعدونه ، قد سبق المؤرخين الأوائل . وتفوق عليهم وعلى جميع الذين جاءوا بعده بعدة قرون على المستوى العالمي . وهذه النظرة الشاملة في موضوع التاريخ ، من النظرات الخاصة بأسم ما يسمى عادة بأسم (تاريخ الحضارة) .⁽⁵⁰⁾ ويرى، ويدجيري ان " ابن خلدون يمنح أحيانا ، لقب مؤسس علم التاريخ ، لأنه كان يؤكد ان التاريخ هو جملة من المعارف النوعية ، يشكل موضوعها جماع الظواهر الاجتماعية المسجلة في التاريخ الحقيقي كما يشكله البحث في العوامل التي ما زالت تمارس فعلها فيه " . ويهدف التاريخ الى ان يستخلص من ذلك ما يصل الأسباب بمعلولاتها وكذلك المركبات الطبيعية والنفسية . كما ان التاريخ ليس ، وفقا لرأيه ، رواية بسيطة للحوادث ولكنه وصف للعلاقات الاجتماعية .⁽⁵¹⁾

واثبت ابن خلدون ثلاث قضايا تشكل الدعائم الأساسية لفلسفة التاريخ :

أولها : ان التاريخ علم من العلوم ، تعتمد في دراسته مناهج العلوم الطبيعية ، يستخلص منها قوانين يمكن تعميمها على الظواهر التاريخية .

والثانية : ان التاريخ، من هذه الناحية ، يعد فرعا من فروع الفلسفة .

والثالثة : وهي الجديدة حتى الآن ، والتي لم يسبق إليها أيضا ، وهي تصوره الواضح للتاريخ الكلي ، وتمييزه عن تاريخ الأمم . ولا شك ان فلسفة التاريخ إنما تعني بالتاريخ الكلي ، الذي افرغ له ابن خلدون ، مقدمته بنمائها ، وهكذا اقام منذ البدء ما تقوم عليه فلسفة التاريخ من أسس ، فأستطاع ان

50 - ينظر : المخزومي ، عادل ، مدخل إلى فلسفة التاريخ ، المصدر السابق ،ص148-149.

51 - ينظر : ويدجيري ، ج ، ألبان. المذاهب الكبرى في التاريخ .المصدر السابق ، ص134. وينظر : النشار ،مصطفى حسن، فلسفة التاريخ، المصدر نفسه ، ص148. وينظر : توينبي ، ارنولد ، تاريخ البشرية ،ج2 ، تر ، فواد محمد شبل ، الادارة الثقافية في جامعة الدول العربية ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ط1، القاهرة ، 1961 ، ص160. و باقر، طه، في مقدمة ترجمته لكتاب ارنولد توينبي ،بحث في التاريخ،موجز المجلدات الستة الأولى ، بقلم سي. سمرفل ،الجزء الأول ،مطبعة التقيض الاهلية ، بغداد،(ب،ت)،ص5 .

يحقق نجاحا في بناء نظرية متكاملة وشاملة في فلسفة التاريخ.(52) ويبدو ان انطلاقة ابن خلدون ، في تفسير التاريخ ليست هي كما مرت علينا في تناول أوغسطين ، على الرغم من ان تصور ابن خلدون ، للتاريخ لم يكن مغايرا للدين ، لكنه لم ينطلق منه في تفسير أحداثه ، على العكس تماما من أوغسطين ، الذي قدم تصورا للتاريخ ، لم يبتعد فيه عن التصور المسيحي للتاريخ ، عندما جعل من المسيح ، هو الذي يسمو بمدينة الأرض الى السماء ، وانه المنقذ او المخلص . فكان ابن خلدون ، يعتقد دائما ان الله أراد لسير المجتمع في التاريخ قوانين ثابتة كما في قوانين الطبيعة .

على ان هذه القوانين الطبيعية ، اسهمت في إيمانه بـ (التطور) كنظرية اكتملت لديه قبل داروين ، بخمسة قرون ، فقد اكتشف حقيقة التطور في الكائنات تدريجيا ، حتى الإنسان وصاغها صياغة عملية دقيقة ، وقد استفاد منها في دراسته للتاريخ ، حيث رأى ان الظواهر الاجتماعية أيضا تخضع للتطور فان التطور فيها أكثر وضوحا منه في الظواهر الطبيعية ، والتطور عنده ليس دائريا ، بل لولبي ، لا يسير في خط مستقيم ، وهذا واضح في حديثه عن الدولة ، فكل دولة عنده تبلغ قمة مجدها وحضارتها ثم تهزم وتندهور لتأتي دولة جديدة لا تبدأ من الصفر بل تأخذ بعض ما تركته الدولة السابقة وتضيف اليه من لديها وتخلق حضارة مختلفة نوعا ما عن الحضارة السابقة . فالتاريخ عند ابن خلدون ، عبارة عن دول تظهر وتنمو ثم تفنى والفناء عنده هو النهاية المحتومة دائما ، وشيء واحد هو الذي يفلت من الفناء ، هو التطور . وذهب إلى ان هناك عوامل تتحكم بالتطور التاريخي هي : الاقتصاد والدين والبيئة الجغرافية .(53)

ونستنتج ان ابن خلدون نظر الى التاريخ والحضارة من وجهة نظر تطويرية حيوية حينما شبه المجتمع بالجسم الحي ، الذي يولد وينمو وينضج ويضعف ويتدهور ويموت . ان النظرة الفلسفية

52 - ينظر : عبد الحميد ، صائب ، فلسفة التاريخ في الفكر الإسلامي ، دار الهادي للطباعة والنشر ، ط1، بيروت ، 2007 ، ص335.

53 - ينظر : النشار ، مصطفى حسن ، فلسفة التاريخ ، المصدر السابق ، ص149-157.

فف دراسة التحويلات والتبذلات الحضارفة تتجلى عند ابن خلدون فف رؤفته الكلفة للظاهرة التاريخية فف سفاقاتها التاريخية والطبففة ، فالبفئة الطبففة والجغراففة والمناخ والخصوبة ، ووسائل انتاج الثروة ، وطرففة تنظفم الناس فف القبلة او المففنة ، والعصبفة والعقفدة التي لها توحد الجمفع ، والقفم الاخلاقفة والشروط الاخرى التي تتصل بصفة الناس كلها تؤثر فف سفة الناس فف صراعهم مع الطبفعو ومع انفسهم ، ولقد جاءت رؤفة ابن خلدون التاريخية حصفلة لتجربة غنفة ومعاشفة مسفرة للءول والانظمة والشعوب المتصارعة فف زمانه ، فأستلص بأن التاريخ هو " نهوض وانحطاط " للءول من حالة البءاوة الى حالة الحضارة ، وان كل نظام يمر بالءور نفسه من المفلاد والنمو والنضج والانحطاط اشبه بالكائن الءف ففولء وفنمو وفموت (54)

وعلى هذا هناك اربع مراحل متعاقبة لمفلاد الءول وزوالها : البءاوة ، الملك ، الحضارة ، السقوط . وعلى هذا التاريخ والحضارة عند ابن خلدون ءورة متصلة وصراع ءائم على الملك والرئاسة والحضارة ، والحضارة هف غاية العمران ومنتهاه ، ولكنها سبب خرابه وزواله . (55)

وهذا أفضا ففشر الى ان ، النقد والفحص والتأمل والتءقق ، كأسالفف شاع اسءءامها عند ابن خلدون ، لم تفارق بءثه العلمف القائم على أسالفف البءث ءاتها المسءءمة فف العلوم الطبففة ، وهذه ءلالة انه سبف (أوجست كونت) فف محاولة إخضاع العلوم الإنسائفة الى منهج البءث العلمف المسءءم فف العلوم الطبففة ، وهذا سبف آخر له سبف ففه ففره من الفلاسفة الأوربففن وففرهم .

وخلصته فف التاريخ وفق تعرففه له فف المقءمة " خبر عن الاجتماع الإنسائف الءف هو عمران العالم وما فعرض لطبففة ءلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصففات ... وما فنشأ عن ءلك من الملك والءول ومرائبها وما فنتحله البشرف بأعمالهم ومساعفهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما فءءث من ءلك العمران لطبففته من الأحوال " . (56)

54 - عبء العزفز ، عزة ، فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع ، مكنبة القاهرة الءففة ، القاهرة ، ط1 ، 1960 ، ص37.

55 - مؤنس ، بسفن ، مجلة عالم المعرفة الكوففة ، العدد 34 ، مافو 1978 ، ص178.

56 - ابن خلدون ، عبء الرحمن بن محمد، المقءمة ، ءار الفكر ، (ب،ط)، بفروف ، 1998 ، 75.

وعليه فان فلسفة التاريخ ، ظهرت على مستوى الطروحات الفكرية التاريخية ، بعد ان تحول التاريخ من مستوى التدوين ، الى مستوى التفكير بما هو مدون وإخضاعه الى عوامل تتحكم في مساراته ، وكانت علامات هذا التحول واضحة في فكر أوغسطين وابن خلدون . ولكن؟ تم تجاوز هذه المرحلة الى مرحلة جديدة ، هي مرحلة تطور المفهوم حتى ظهر المصطلح بتفسيره الحالي على لسان فولتير ، لذلك تحتم الأمر تسليط الضوء على هذه المرحلة ، وهي مرحلة التطور.

والفهم الفلسفي العقلاني للتاريخ من حيث منطق الداخلي هو الذي يميز ابن خلدون من سواه ، اذ اتخذ من الظاهر التجريبي الاستقرائي لحظة نقدية لاكتشاف المنطق الداخلي للعملية التاريخية المحكومة بالتبدل والتغير المستمر ، وقد كشف عن قانون التطور الديناميكي في الحياة والمجتمع ، وان احوال العالم والامم وعوائدهم ونحلهم لاتدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر ، انما هو اختلاف على الايام والازمنة وانتقال من حال الى حال . ولقد اخذ ابن خلدون من الفلسفة نظرتها العقلية الكلية ومن التاريخ واقعيته ومعطياته الجزئية ، والاستردادية في منهجه ، ليكون منهما علما واحدا يجذب فيه الفلسفة الى علم الوقائع حتى لا تحلق في سماء اليوتوبيات ، ويجذب فيه التاريخ الى الفلسفة حتى لا يصبح مجرد روايات وسرد اخبار جزئية لا رابط بينهما ، فان الفلسفة دون تاريخ خواء ، والتاريخ دون فلسفة عماء . ان استخدام ابن خلدون المنهج الفلسفي العقلاني النقدي وادواته الكلية والديناميكية والتعليل والتحليل الديالكتيكي هو الذي جعله يبني نظرية في التعاقب الدوري للنظم السياسية . (57)

المطلب الثاني : تطور المصطلح .

أ – التصور الأوربي للفكر التاريخي قبل فولتير .

وهنا نلاحظ تطور الفكر التاريخي بشكل ملحوظ على يد الأوربيين ، ذلك لما اقتضاه الواقع الفكري بأوروبا وما شهدته من تغيير في مناخاته العامة ، وفي الفكر التاريخي ، نستطيع ان نسميها

57 - المحبشي ، قاسم عبد عوض ، فلسفة التاريخ في الفكر الغربي المعاصر ، ارنولد توينبي موضوعا ، أطروحة دكتوراه ، مخطوطة ، مقدمة الى مجلس كلية الآداب في جامعة بغداد ، 2004 ، ص 47 .

بدايات فلسفة التاريخ ، التي كانت نتاجا من نتاجات عصر النهضة وما شهدته من ثورة فكرية على كافة المستويات ، فقد شهد عصر النهضة الأوروبية مجموعة من الاكتشافات في كافة أنواع العلوم وميادين المعرفة جعلت من اصحاب التاريخ يقررون اللحاق بركاب العلوم ، وهنا كان لزاما عليهم مغادرة الطريقة القديمة في التفكير وانتهاج اسلوب البحث العلمي الجديد الذي تبنته علوم النهضة الأوروبية. " لقد أطلقت النهضة طاقات الإنسان ، وأفضى ذلك الى الاهتمام المتزايد بالحياة الإنسانية ، وبالجسد الإنساني والطبيعة الحية ، الى رؤية جديدة لكل شيء ، وبدلا من المحنة حل الفرج ، وباستعمال الإنسان للقوى التي وهبها إياه الله حلت الحرية في توجيه العقل بدلا من الخضوع لإرادة الكنيسة " . (58)

وبهذا المعنى ، فإن عصر النهضة عاد للناس تقدير جديد للتاريخ ، ولم يعد ينظر الى أعمال الإنسان وأفعاله على إنها أعمال لا تستحق الأهمية بالقياس الى مشيئة مقدسة مرسومة تسيطر على الأحداث ، كان من أمر التفكير التاريخي ان عاد تقدير الإنسان ، بوصفه محورا ارتكز عليه التفكير التاريخي . (59)

" وقد تطورت فكرة التاريخ هذه على يد مفكرين مستقلين ببلاد الغرب في أثناء القرون الأربعة الأخيرة ، تضمنت آراء جديدة في التاريخ ، ووسعوا نطاق هذه النظرة الى كافة مجالات التاريخ ، وتوسعوا بهذه النظرة إتباع الفكرة التآليه في التاريخ ، غير المؤمنين بعلم طبيعة المسيح ، أحرزوا تقديرا أعظم للقيم الدنيوية في التاريخ . وربما أمكن العثور في عصر النهضة بايطاليا على بدايات هذه التأملات المستقلة في التاريخ . كما وجدناها في فكرة التحدي عند مكيافلي " . (60)

58 - المحبشي ، قاسم عبد عوض ، فلسفة التاريخ في الفكر الغربي المعاصر ، ارنولد توينبي موضوعا ، المصدر نفسه ، ص52-53.

59 - ينظر : كولنجود ، فكرة التاريخ ، تر ، محمد بكير خليل ، مراجعة محمد عبد الواحد خلاف ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، (ب،ط) ، القاهرة ، 2012 ، ص119 .

60 - الجنابي ، حامد عبد الحمزه ، فلسفة التاريخ عند هيجل وأثرها في منهج البحث التاريخي ، رسالة ماجستير ، مخطوطة ، قدمت الى مجلس كلية الآداب ، جامعة الكوفة ، 2011، ص98.

إلا ان من المناسب ونحن نبحث في فلسفة التاريخ في الفكر الأوروبي قبل الاصطلاح ، ان نسلط الضوء على ابرز رواد هذا الفكر التاريخي ، فوجدنا من المهم ان نلقي نظرة على ابعاد واقرب شخصيتين على فولتير خلال عصر النهضة ، هما : مكيافلي ، على اعتباره من أوائل المهتمين بالفكر التاريخي في بدايات عصر النهضة ، والثاني ، هو فيكو ، على اعتباره من معاصري فولتير .

أولا : مكيافلي . (1527-1467) . الذي نجد في مؤلفاته : (الأمير ، المطارحات ، تاريخ فلورنسا ، فن الحرب) ، التي أكد فيها " ان كل حركة تاريخية هي حركة سياسية " وان التاريخ من صنع الإنسان ورفض كل نظرة غيبية للتاريخ والسياسة ، اذ فسر نشوء الدول وأشكال الحكم والحروب والأديان بالعودة الى الطبيعة الإنسانية التي لا تستقر على حال أبدا " (61)

وتحليلنا رؤيته هذه الى التاريخ ، على أصالة النزاع في طبع الإنسان ، وان المظهر الأساسي لهذا النزاع ، هو الصراع الأزلي الدائم بين عامة الشعب من جهة وبين العظماء والأقوياء من جهة أخرى ، وان السبب الذي يكمن وراء هذا النزاع هو أرادة القوة والشهوة الى السيطرة عند القلة ، ونشوان الأمن والاستقرار عند الغالبية العظمى . وهو في تفصيله أطوار هذا النزاع يبدو مستعيرا لأفكار أفلاطون وأرسطو ، في السياسة المدنية . (62)

كما ويذهب مكيافلي ، الى انتقاد الكنيسة والتصور اللاهوتي عن الإنسان والتاريخ والدولة بقوله : " ان المسيحية مجدت الرجال المتواضعين الميالين الى التأمل والخمول والتبذل ، لا رجال العمل والفعل والنشاط " . (63)

61 - مكيافلي ، الأمير ، تعريب خيرى حماد ، منشورات الكتاب التجاري للطباعة ، (ب،ط) بيروت، 1970، ص107.

62 - عبد الحميد ، صائب ، فلسفة التاريخ في الفكر الإسلامي ، المصدر نفسه ، ص62.

63 - مكيافلي ، الأمير ، المصدر نفسه ، ص143.

لكن مكيافلي ، لم يترك نقده هذا بدون ان يقدم تركيبه الجديد للموضوع بعد ما قام بتحليله . فقد أعلن ان "الطبيعة البشرية محكومة بمبدأ ثابت وان عالم الكائنات البشرية هو نفسه في كل مكان وزمان ، انها طبيعة الإنسان الأصلية في الحب والخوف والاعتقاد ، فإذا ما عرف الأمير المصلح ، الطبيعة البشرية ، استطاع التحكم بها والسيطرة عليها " (64)

وقد وضع قوانين تحدد رؤيته في تفسير الأحداث التاريخية الكبرى ، فالثورات الكبرى منشؤها عنده الاستضعاف والاستعباد : " وهكذا كان من الضروري ان يجد موسى شعب إسرائيل عبدا في مصر ، يضطهدهم المصريون ، لتكون لديهم الرغبة في إتباعه للنجاة من العبودية .. وكان من الضروري أيضا ان يعجز رومولوس ، عن البقاء في ألبا وان يتعرض للعراء عند ولادته ، حتى يتمكن من ان يصبح ملكا على روما ومؤسسا لشعب فيها .. وكان من الضروري ان يجد كوروش ، الفرس ناقمين على إمبراطورية الماديين " (65)

وهذه النصوص المكيافلية تشير الى عمق فكرة التحدي لديه ، والتحدي كان عنده تحديا للأفكار الوسيطة السائدة في عصره ، وهذا ما يثير الدهشة ، ومن جانب آخر فأن فكرة التحدي عند مكيافلي ، وجدت بعدا فلسفيا ، امتد الى الفلسفة المعاصرة ، تمثلت في أفكار وفلسفة ارنولد توينبي ، في التاريخ والتي عبر عنها في نظرية التحدي والاستجابة. وهكذا يمكن القول ان مكيافلي ، مثل بدايات التفكير الفلسفي في التاريخ خلال عصر النهضة ، وهذا يقودنا الى ان نجد هذا النسق الفكري لدى أفكار الكثير من الفلاسفة الذين اهتموا بدراسة التاريخ مرورا بفيكو ، الذي سوف ندرسه لاحقا.

وعلى ما يبدو ان مكيافلي ، جاء بنظرة جديدة في التاريخ الإنساني ، تعتمد أولا على وحدة الطبيعة البشرية واطرادها في كل العصور والأزمنة ، تاريخها واحد وهو التقدم المستمر نحو مزيد

64 - ينظر : الطعان ، عبد الرضا حسن ، تاريخ الفكر السياسي الحديث ، دار الحكمة للطباعة والنشر ، ط1 وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ، جامعة بغداد ، 1992، ص169.

65 - ينظر : مكيافلي ، الأمير ، المصدر نفسه ، ص81 .

من الرخاء او التأخر نحو مزيد من الشقاء ، وتظل الحياة الإنسانية توترا بين التقدم والتأخر . إذا ما بلغ التقدم مداه تلاه التأخر وإذا ما بلغ التأخر مداه ظهرت بوادر التقدم . ودراسة التاريخ القديم تثبت هاتين الحركتين اللتين تحددان تاريخ البشرية ثانيا ، يظهر التقدم إذا ما استطاع ذهن عقري واحد ، وهو الأمير ، وضع نظام واحد يخضع له الجميع والحرص عليه دون ما انحراف أو تحريف . ويكون هذا النظام قائما على الطبيعة البشرية الثابتة ومعبرا عنها ، فالثبات فضيلة والتغير رذيلة ، هذان الاقتراحان : ثبات الطبيعة البشرية وقوة المشرع في الحقيقة ، وان كانا عاملين للتقدم إلا إنهما في النهاية يمنعان من كل تقدم ، وبدل ان يصبح النظام وسيلة لسعادة الإنسان ، يصبح الإنسان ضحية للنظام ، ويصبح النظام معوقا لتقدمه .⁽⁶⁶⁾

ثانيا : جيان باتيستا فيكو (1688-1744) . يتميز بأهمية خاصة في دراسات فلسفة التاريخ ، ذلك لأنه يعد أبا لفلسفة التاريخ ومؤسسا لها ، بفضل إيمانه بالعبادة الإلهية التي لها دورا في التاريخ ، كما ذهب الى ذلك ابن خلدون ، وافر بتدخل العبادة الإلهية في الأزمات وحالات الفوضى ، بإظهار بطل ، فإن لم يكن فبفرد من شعب آخر أرقى فان لم يكن طبقت دورها الأخير : الفناء أي ان فيكو ، اعترف بدور العبادة الإلهية في التطور التاريخي وتدخلها لإصلاحه حينما يتجه الى الفناء . وان نقطة البداية عند فيكو في فلسفة التاريخ نقطة منهجية ، إذ بدأ بنقد منهج العلوم الرياضية الذي اعتمد عليه ديكرت ، في فلسفته ومن ثم شغلته مناهج العلوم الطبيعية⁽⁶⁷⁾ . فوجد ان سيكون قد نجح بمنهجه التجريبي في الكشف عن أوثان الفكر وأوهام المفكرين فأراد ان يستفيد من هذا في دراسته للتاريخ من حيث المنهج ، وكان من هذا قوله بأن المؤرخين يتعرضون لأوهام حصرها في أربعة

⁶⁶ - لسنج ، تربية الجنس البشري، ترجمة وتقديم وتعليق ، حسن حنفي ، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع ، ط2، بيروت ، 2006، ص46.

⁶⁷ - وتمكن الى حد بعيد من الإفادة الواعية من التقدم الذي طرأ على مناهج البحث والتحليل النقدي في العلوم ، والمعلومات المتراكمة من الاستشراق والدراسات الانثروبولوجية ، وتوظيف كل ذلك في كتاب (العلم الجديد والطبيعة المشتركة للأمم) الذي تصور فيه تاريخا لعالم واحد يتحرك في ثلاث دورات كبرى تحت رعاية العبادة الإلهية . للمزيد ينظر: هيرمان ، آرثر ، فكرة الاضمحلال في التاريخ الغربي ، تر ، طلعت الشايب ، تقديم رمضان بسطاويس ، المجلس الأعلى للثقافة ، المشروع القومي للترجمة ، ط1 ، القاهرة ، 2000 ، ص56 .

هي : الأوهام الأربعة في عمل المؤرخين وهي ، وهم التهويل والتفخيم و وهم الثقافة والتعليم وهم المصادر و وهم الاقتراب . (68)

وعنده ، ان التاريخ الإنساني من صنع الإنسان ، ومن ثم يمكن فهمه عن طريق الإنسان . ومبادئ العلم التاريخي لا بد ان توجد في تعديلات العقل الإنساني ، أي في طبيعة الإنسان . وان التاريخ يصلح للبحث العلمي والتأمل بسهولة أكثر من الطبيعة الفيزيائية ، فالتبيعة من صنع الله وحده ، وليست من صنع الإنسان ، ولذلك فإن لدى الله وحده معرفة كاملة وكافية بالطبيعة . أما المجتمع الإنساني ، والقوانين الإنسانية ، واللغة ، والأدب ، فهي جميعها من صنع الإنسان . ولذلك يستطيع الإنسان ان يفهمها بالفعل ويفهم مبادئ تطورها . فالتاريخ يكشف لنا عن الطبيعة الإنسانية . ولا نستطيع ان نبلغ معرفة بالطبيعة الإنسانية بالنظر ، ببساطة ، الى الإنسان على انه يكون في المرحلة الثانية من عصر البشرية مثلا ، او بأن نأخذ الفيلسوف على انه المعيار . انه يجب علينا ان نتجه الى الانكشاف التدريجي لطبيعة الإنسان في التاريخ ، وفي قصائده الشعرية ، وفي فنه ، وفي تطويره للمجتمع والقانون ، وهلم جرا . الإنسان هو الذي يصنع التاريخ ، ومن ثم فإنه يمكن فهمه عن طريق الإنسان . وبدراسة التاريخ يبلغ الإنسان وعيا تأمليا بطبيعته الخاصة . وبما كان وما كائن وما يمكن ان يكون . ومن السخف ان نمجد انجازات عصر العقل ، عصر الفلاسفة ونحقر من شأن الماضي والعصر البدائي ، لان مجرى التاريخ كله هو انكشاف الإنسان . (69)

وفي فكرة التقدم ، عند فيكو ، فإنه يعدها مرحلة متتابعة في حياة كل حضارة منفصلة انه تقدم يصل أحيانا الى أعلى قمم العظمة والقوة ، وفي عصور أخرى ينحدر الى فقدان التضامن البشري واغتراب الأفراد والجماعات وتفكك النسيج الاجتماعي والضعف والتحلل والكارثة ، ومراحل هذا النظام تحددها العناية الإلهية لكل مجتمع أممي ، لكن ليس هناك غاية نهائية وليس هناك رؤية

68 - ينظر : النشار ، مصطفى حسن ، فلسفة التاريخ ، المصدر السابق ، ص177-178.

69 - ينظر : كوبلستون ، فردريك ، تاريخ الفلسفة ، ج6، تر، حبيب الشاروني ، محمود سيد احمد ، مراجعة وتقديم إمام عبد الفتاح إمام ، المركز القومي للترجمة ، ط1، القاهرة ، 2010 ، ص225-232.

لمسيرة الجنس البشري كله الى كمال نهائي . ومع ذلك نستطيع ان نقول ان نظرية التعاقب الدوري لمراحل التطور عند فيكو، لا تحول دون التقدم على ان نفهم التقدم فهما مختلفا عن فلاسفة التنوير ، ذلك لان الدورات التاريخية ، لا تعود بشكل دائري ، بل تعود بشكل حلزوني متقدم ، بحيث يمكن القول بأن إطلاق اسم النظرية الدورية على نظرية فيكو ، هي تسمية غير دقيقة ، لان مفهوم النظرية الدورية يعني ان يعيد التاريخ نفسه وان يبدأ من نفس البداية التي انطلق منها . ولكن الأمر مختلف عند فيلسوفنا ، فالتاريخ لا يسير في خط دائري وإنما في شكل حلزوني صاعد بحيث تأتي كل دورة تاريخية بالجديد . (70)

ب - فولتير والتأسيس لفلسفة التاريخ الحديثة .

ويعد فولتير (1694-1778)، أول من استخدم كلمة (فلسفة تاريخ) بالمعنى الحديث للكلمة ، من حيث هي فرع جديد من فروع المعرفة الإنسانية ، تدرس التاريخ دراسة عقلية ناقدة ، ترفض الخرافات والأوهام والأساطير والمبالغات . وتعود أهمية فولتير، هنا لما كان يمثل في عصر التنوير من قيمة نقدية مهمة ، ففي شخصيته وأدبه الجاد والساخر وفي منهجه النقدي العنيف ، وأسلوبه اللاذع وقوة أفكاره كان خير من عبر بعمق عن روح عصر التنوير واتجاهاته التقدمية ، وكانت نظريته الى التاريخ تمثل ملامح هذه الروحية التقدمية ، فلم يعد ينظر الى التاريخ على انه تسجيل معاهدات ومعارك وأخبار ملوك ، بل اخذ يفكر في ما وراءه من حكمة . (71)

ويرى (فولغين) في كتابه عصر الأنوار ، " ان مؤلفات فولتير، كانت سلاحا في يد الطبقة المتقدمة في ذلك العصر ، والداخلية في عملية الصراع الاجتماعي ، وقد وضعت مواجته للكنيسة في موقف رفض للتصور اللاهوتي للتاريخ . لقد كان التاريخ في منظور فولتير، علما علمانيا خالصا بدون تدخل القوى الإلهية . انه من صنع أناس عاديين تحركهم دوافع إنسانية خالصة . وبما

70 - أبو السعود ، عطيات محمد ، فلسفة التاريخ عند جامبا تيسنا فيكو . التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، بيروت ، 2010، ص198.

71 - ينظر : كولنجود ، فكرة التاريخ ، المصدر السابق ، 148.

ان الأحداث لا يمكن ان تعد من هذا المنظور مراحل على طريق تحقيق مشروع الهي ، فان فولتير، كثيرا ما يتحدث وكأنه تظافر لمجموعة الظروف المعارضة . بيد ان هذه المصادفات ترتبط فيما بينها بعلاقات علمية . وتخضع لنواميس الكون والطبيعة وذلك لفهم التاريخ البشري . ان هذه النتيجة تقول ، (كل حدث في الحاضر يولد من الماضي ويولد المستقبل ، وان الترابط السرمدي للأشياء غير قابل للانقطاع او للتغيير وان الطبيعة برمتها خاضعة لنواميس لاعودة عنها " . (72)

وتتمظهر آراء فولتير، في التاريخ والتي أظهرت لأول مرة استخدام كلمة (فلسفة تاريخ) بعد ان استخدمها سابقا في بحث له عام (1756) في مقدمة كتابه (مدخل في طبائع الأمم وروحها) في (1753-1758) ، ولكنه لم يشرع ببحث مذهبي لهذا المعنى ، الذي يعني ، بالنسبة له ، التفكير في التاريخ بدلالة موقف القرن الثامن عشر العقلي . ذلك ان فولتير : " قد ألقى القفاز في وجه ذلك النوع من تصور التاريخ الذي مجده ببراعة فائقة بوسيه " كان يعتقد في الله ، ولكنه كان يرفض الفكرة القائلة بأن التاريخ كان ثمرة الفعالية الإلهية بالمعنى الذي تشير إليه مثلا ، عبارة كالعناية الخاصة ، ولا شك ان فولتير، لم يكن يعتبر التاريخ من خلال النظرة التاريخية في حياة المسيح . فقد كان خصما صريحا للكنيسة الكاثوليكية . ولم تكن الأديان التاريخية ، بحسب رأيه سوى صيغ خرافية للدين الطبيعي وللمعتقدات والتقوى التوحيدية . (73)

وفولتير ، هو القائل لا ينبغي ان يكتب التاريخ سوى الفلاسفة ، ومن هذا نرى ان رؤيته في التاريخ تتلخص في ان العقل هو الذي يكمن وراء حركة التاريخ ، وغريزة الانسان التي تدفعه الى المجتمع يدعمها العقل . وثمة ثلاثة اشياء تؤثر على فكر البشر : المناخ ، ونوع الحكم ، والدين . وهذه هي الوسيلة الوحيدة لتفسير لغز العالم . (74)

72 - فولغين ، عصر الأنوار ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، ط1 ، بيروت ، 1981 ، ص37-38.

73 - ينظر : ويدجيرري ، المذاهب الكبرى في التاريخ ، المصدر السابق ، ص199.

74 - عبد الحميد ، صائب ، فاسفة التاريخ في الفكر الاسلامي . دار الهادي ، ط1 ، بيروت ، 2007 ، ص76 .

من هذا يتضح لنا ان المدخل الصحيح لفهم التاريخ لديه هو من خلال ضرورة اهتمام المؤرخ بتتبع سير العقل البشري عبر حقبة التاريخ المختلفة من خلال دراسة منجزاته في العلم والادب والفن وغيرها من مظاهر الحضارة الانسانية . واذا بدت هذه الدعوة امرا مألوفاً بالنسبة الى القاريء المعاصر ، فأنها لم تكن كذلك في عصر فولتير ، بل كانت بمثابة نقد عنيف للتاريخ الذي شاع طوال العصور الوسطى وحتى عصره ، فقد كان المؤرخون يولون جل اهتمامهم لآخبار الدولة والكنيسة وما يتصل بهما من ملوك وقادة ورجال كهنوت . وقد شهدت كتابات فولتير ، اللاحقة تفصيلات متنوعة لهذه النظرة الحضارية العقلانية للتاريخ والتي اطلق عليها تسمية فلسفة التاريخ . (75) وفلسفته هذه ادت به الى القول ان التاريخ في اساسه نتاج احتكاك الافكار والحضارات . فالمسيحية جاءت لتتحدى الوثنية ، والاسلام دخل في صراع مع المسيحية ، والمذهب البروتستانتي ظهر يتحدى الكاثوليكية التي كانت سائدة في العصور الوسطى ، اما عصر فولتير نفسه فقد تغلب فيه العقل على كل الخرافات وشتى البدع . (76)

وتعد فلسفته في التاريخ اخلاقية انسانية ، اذ ذهب من خلال فلسفته في التاريخ هذه الى ان التاريخ لا يهدف الى اشباع الفضول ولا تجميع الوقائع ، ولكنه البحث في المثل التي تفيد في التحكم في المستقبل ، ومع ذلك كان يرى ان التاريخ وحده لا يكفي كمرشد للسلوك الخلفي ، وان الادب له هذه الميزة على التاريخ . (77)

وقد خاض في فكرة التقدم ، حيث حاول فولتير ، وضع قانون للتقدم على مرحلتين : الأول عهد الفطرة الخالصة – عاش فيه الإنسان عاقلاً طبقاً لقانون الفطرة يتمتع فيها بنتيجة عمله ويحترم فيها حقوق الآخرين ، والثانية عهد المدينة ، يعيش فيها الإنسان تحت نظام من صنعه ويحول فيه قانون الفطرة الى نظام اجتماعي يقوم على الحرية والعدل . قد تحدث انحرافات في مسار العقل وفي تقدم

75 - الملاح ، هاشم يحيى ، الوسيط في فلسفة التاريخ . دار ابن الاثير للطباعة والنشر ، (ب،ط) جامعة الموصل ، 2007 ، ص158

76 - عبد الحميد ، صائب ، فاسفة التاريخ في الفكر الاسلامي . المصدر السابق ، ص76 .

77 - الحفني ، عبد المنعم ، الموسوعة الفلسفية . المصدر السابق ، ص349 .

الإنسانية وعلى رأسها الطبقات الاجتماعية واستغلال الملكيات الكبيرة واضطهاد الأجناس البشرية والاضطهاد الديني ، ومع ذلك فالإنسانية قادرة على التغلب على هذه الانحرافات والاستمرار في تقدمها بفضل المدنية والنظم الاجتماعية القائمة على الحرية والعدالة . وللتقدم غايات ثلاث : أولا : التقدم العقلي وهو أساس التقدم في النواحي الأخرى ، وهو ما ركزت عليه فلسفات التنوير جميعها في محاربتها لألوان الجهل . ثانيا : التقدم الاجتماعي خاصة في العادات والتقاليد واكتساب الإنسان سلوك التحضر والمدنية . ثالثا : التقدم في التشريع ، وإقامة النظم الاجتماعية على العدالة وعلى الديمقراطية في أساليب الحكم . (78)

وعنده تبقى حركة التاريخ في تقدم ، فإن الانتصارات البشرية على الأشياء وتناحر الجماعات البشرية وتقدم الاخلاق والعلوم والفنون ، كل هذا جرى بصورة طبيعية ، وكل هذا سيستمر متزايدا كلما توسع افق العقل البشري . (79)

ولفولتير عدة مصنفات تاريخية ، منها : تاريخ شارل الثاني عشر ملك اسكينداوة ، وعصر لويس الرابع عشر ، وتاريخ نشأة المسيحية ، وحوليات إمبراطورية روسيا خلال حكم بطرس الأكبر . وتميز منهج فولتير ، في البحث التاريخي بميزات عدة ، أبرزها : البراعة في تحليل الشخصيات وحوادث التاريخ والمقارنة بينها والاهتمام بتاريخ الحضارات لا بتاريخ الملوك والساسة ، حتى في كتبه التي تناول فيها عصور بعض الملوك ، فمعنى التاريخ عنده يكمن في العلوم والفنون والأدب وتهذيبات الحياة الاجتماعية . اذ هو صورة للحضارة وتفسير لها . كما وأدرج التاريخ البشري بأجمعه ضمن دائرة البحث والدراسة والنظر الفلسفي ، وعدم الاقتصار في ذلك على التاريخ الأوروبي . كما وذهب الى التفسير الواقعي لحوادث التاريخ بعيدا عن غيبيات الكتاب المقدس ، ومن ثم نجد ان فولتير انتقد نقدا لاذعا تاريخ اليهود الذي أورده العهد القديم ، على أساس انه جاء بكل ما هو غيبي ، وبعيدا عن الواقعية ، مما جعله عرضة للنقد ، بسبب قصور نصوصه وعدم

78 - لسنج ، تربية الجنس البشري ، المصدر السابق ، ص58-59.

79 - عبد الحميد ، صائب ، فاسفة التاريخ في الفكر الاسلامي . المصدر السابق ، ص76 .

مطابقتها وعدم قدرتها على الاتصال بالمنهج التاريخي ، وعليه فأن فولتير ، الذي تميز بفلسفته العقلية انتقد تاريخ اليهود .(80)

الخاتمة نتيجة لاشتغالاتنا في هذا البحث تم التوصل الى نتائج اساسية تعد خاتمة البحث وهي كالتالي :

1 – تعد فلسفة التاريخ قبل الاصطلاح من الموضوعات التي كان لها حضورا مميزا في الفكر القديم ، وبرغم عدم اصطلاحها بهذا الاسم الا ان هذا لايعني عدم حضورها قديما .

2 – كما ان للفلسفة جذور شرقية ، فقد تبين لنا من هذا البحث ان لفلسفة التاريخ وحركة العقل اصول شرقية قديمة ، كما لحظنا ذلك ضمن دراستنا لحركة التاريخ عند البابليين والمصريين والصينيين ، اذ لم يكن اهتمامهم قاصرا في التفكير التاريخي على وفق نوع المرحلة الفكرية التي كانوا قد تأثروا بها .

3 – تبين ان هناك نوع من الملاحظة الفكرية والحضارية بين حضارات الشرق القديم ، مما ادى الى تأثر احداها بالآخرى ، فكانت فكرة التاريخ تحتل اهمية بالغة في ثقافة تلك الامم القديمة مما ادى الى حضورها الفاعل في البناء التاريخي .

4 – لم تكن الفلسفة اليونانية والفكر التاريخي اليوناني اقل شأنًا من حضارات الشرق في طريقة التعاطي مع الافكار التاريخية ، فحظى التاريخ لديهم باهتمامات واسعة وصلت الى كتابته شعرا داخل الملحمة ، وشاهدنا هذا عند هوميروس ، وهزيود ، فوجدنا اشارات الى قانون السببية التاريخية وقانون العلية ، كما ووجدنا اثرا لمنهج تاريخي استعمله اهل اليونان في كتابتهم للتاريخ .

5 – كان للقديس اوغسطين ، والعلامة ابن خلدون بصمة واضحة ومميزة في مجال فلسفة التاريخ قبل الاصطلاح ، فما زال فكرهما مؤثرا في طريقة التفكير التاريخي عند الفلاسفة والمؤرخين ،

80 - ينظر : النجار ، موسى جميل ، فلسفة التاريخ ، المصدر السابق ، ص92.

ولا شك انهما سبقى فلاسفة العصر الحديث من مكيافالي الى فرانسيس فوكوياما ، في الذهاب الى تفسير التاريخ بطريقة علمية اتفقت مع فلسفة كل منهما .

6 – وجدنا ان فلسفة التاريخ في العصر الحديث قبل الاصطلاح قد اخذت طابعا مختلفا تماما عن طريقة التفكير بالتاريخ بالمنهج القديم القائم على المنهج الارسطي ، المستند الى المنهج الاستنباطي ، فقد مات هذا المنهج في نظر فلاسفة العصر الحديث ، واتبعوا المنهج الاستقرائي الجديد القائم على المنهج العلمي ، والذي يستند الى خطوات منهج البحث العلمي .

7 – تم اصطلاح فلسفة التاريخ على لسان فولتير، بعد ان استبدل كلمة الحكمة التاريخ بكلمة فلسفة التاريخ ، وجاء براء جديدة بطريقة التفكير بالتاريخ اختلف فيها عن سابقه ، وقد جاء في اول خطواته ان لاصدفة في التاريخ ، وان التاريخ تحكمه اسباب ونتائج ، ويعد فولتير من ابرز فلاسفة العصر التنويري ، الذي ذهب الى مغادرة الماضي بكل ألياته القديمة في طريقة التفكير ، والذهاب الى وجود حكمة في التاريخ ومن دراسة التاريخ ، فأخذ يبحث عن الحكمة من دراسة التاريخ ، من خلال استعمال النظرة الفلسفية التأملية والتحليل النقدي القائم على تفحص روح النص التاريخي والواقعة التاريخية ، وفولتير يحتل اهمية كبرى للدارس في فلسفة التاريخ ، لانه حمل ايدولوجيات عصر بكامله ومثل تلك المرحلة الانتقالية من مراحل عصر النهضة العلمية ، وفي هذه النهضة قدم لنا فولتير ، نموذج النهضة الادبية التي رافقت تلك النهضة العلمية التي شهدتها اوروبا في شتى انواع المعارف وميادين العلوم

قائمة المصادر والمراجع

1. ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد، المقدمة ، دار الفكر ، (ب،ط)، بيروت ، 1998.
2. أبو السعود ، عطيات محمد ، فلسفة التاريخ عند جامبا تيسنا فيكو . التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، بيروت ، 2010.
3. ادهم ، علي ، تاريخ التاريخ ، (ب،ن) ، (ب،ط)، القاهرة ، 1977 .
4. ارنست ، كاسيرر، مدخل الى فلسفة الحضارة الانسانية . تر، إحسان عباس، دار الاندلس ، بيروت ، 1961.

5. الالوسي ، حسام الدين ، الزمان في الفكر الديني والفلسفي القديم ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، (ب،ط)، (ب،م)، 2000.
6. الجابري ، علي حسين . فلسفة التاريخ في الفكر العربي المعاصر ، جدلية الأصالة والمعاصرة ، القسم الأول ، وزارة الثقافة والإعلام ، دار الشؤون الثقافية العامة ، (ب،ط) ، بغداد ، 1993.
7. الجنابي ، حامد عبد الحمزه ، فلسفة التاريخ عند هيجل وأثرها في منهج البحث التاريخي ، رسالة ماجستير ، مخطوطة ، قدمت الى مجلس كلية الآداب ، جامعة الكوفة ، 2011.
8. الخضير ، زينب محمود ، فلسفة التاريخ عند ابن خلدون ، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع ، (ب،ط)، بيروت ، 2009.
9. الدليمي ، حامد حمزه حمد .فلسفة التاريخ والحضارة .دار الطيف للطباعة ، (ب،ط) ، واسط ، 2004 .
10. السعيد ، حميد خلف ، دروس في فلسفة التاريخ . دار أبجد ، (ب،ط) ، بغداد ، 2007.
11. السواح ، فراس . مغامرة العقل الأول ، الدراسة في الأسطورة ، دار الكلمة ، ط2 ، بيروت ، 1981.
12. الحفني ، عبد المنعم ، الموسوعة الفلسفية . دار المعارف للطباعة والنشر ، (ب،ط) ، تونس ، 1992.
13. الشيخ ، غنمي ، فلسفة التاريخ ، دار الثقافة والنشر والتوزيع ، (ب،ط)، القاهرة ، (ب،ت).
14. الطعان ، عبد الرضا حسن ، تاريخ الفكر السياسي الحديث ، دار الحكمة للطباعة والنشر ، ط1 وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ، جامعة بغداد ، 1992.
15. العجلان ، احمد ، التوظيف السياسي لنظرية البيئة الجغرافية بين ابن خلدون ومونتسكيو . دار رسلان ، ط1، دمشق ، 2009.
16. الكتاب المقدس ، العهد الجديد ، الإصدار الرابع ، (ب،ن) ، الإصدار الرابع ، ط30 ، (ب،م) ، 1993.
17. المحبشي ، قاسم عبد عوض ، فلسفة التاريخ في الفكر الغربي المعاصر ، انولد توينبي موضوعا ، أطروحة دكتوراه ، مخطوطة ، مقدمة الى مجلس كلية الآداب في جامعة بغداد ، 2004.
18. المخزومي ، عادل ، مدخل الى فلسفة التاريخ ، مؤسسة مصر مرتضى للكتاب العراقي ، ط2 ، القاهرة ، 2010.
19. المزوري ، زاهدة محمد الشيخ طه ، اركولوجيا فلسفة التاريخ ، المسار التطوري لفلسفة التاريخ .دار مكتبة البصائر للطباعة والنشر والتوزيع ، (ب،ط)، لبنان ، 2012.
20. الملاح ، هاشم يحيى . المفصل في فلسفة التاريخ . دار الكتب العلمية ، ط1، بيروت ، 2007.

21. الملاح ، هاشم يحيى ، الوسيط في فلسفة التاريخ . دار ابن الاثير للطباعة والنشر ، (ب،ط) جامعة الموصل ، 2007 .
22. الملاح، هاشم يحيى ، وآخرون ، دراسات في فلسفة التاريخ ، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر ، (ب،ط) الموصل ، 1988.
23. النجار ، جميل موسى ، فلسفة التاريخ ، مباحث نظرية . المكتبة العصرية ، ط1، بغداد ، 2007.
24. النشار ، مصطفى حسن . فلسفة التاريخ معناها ونشأتها واهم مذاهبها . دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة ، ط1، عمان ، 2011 .
25. باقر، طه . ملحمة جلجامش . منشورات وزارة الاعلام ، الجمهورية العراقية ، سلسلة الكتب الحديثة ، (ب،ط) ، بغداد ، 1975.
26. باقر، طه، في مقدمة ترجمته لكتاب ارنولد توينبي ، بحث في التاريخ، موجز المجلدات الستة الأولى ، بقلم سي. سمرقل ، الجزء الأول ، مطبعة التفيض الالهية ، بغداد، (ب،ت).
27. برستد ، انتصار الحضارة ، ترجمة احمد فخري ، مكتبة الانجلو المصرية ، (ب،ط) القاهرة ، 1962.
28. تسمير ، روبرت ، في صحبة الفلاسفة ، ج2 ، تر ، عبد الله محمد ابو هشة ، دار الحكمة ، ط1 ، لندن ، 2012.
29. توينبي ، ارنولد ، تاريخ البشرية ، ج2 ، تر ، فؤاد محمد شبل ، الادارة الثقافية في جامعة الدول العربية ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ط1، القاهرة ، 1961.
30. توينبي ، ارنولد ، الفكر التاريخي عند الإغريق ، ترجمة لمعي المطيعي ، مراجعة محمد صقر خفاجة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط2، القاهرة ، 1990.
31. ديوارنت ، ول ، قصة الحضارة ، نشأة الحضارة ، الشرق الأدنى .تر، زكي نجيب محمود ، جامعة الدول العربية ، الإدارة الثقافية ، ط3 ، القاهرة ، 1965.
32. سعفان ، حسن شحاتة ، روح الشرائع لمونتسكيو ، مجلة تراث الانسانية ، مج1 ، مطبعة كوستا توماس وشركاؤه ، القاهرة (ب،ت)
33. شايد ، جوردن ، التاريخ ، تر ، عدلي برسوم عبد الملك ، (ب،ن) ، (ب،ط) ، القاهرة ، 1958.
34. طرابيشي ، جورج ، معجم الفلاسفة . دار الطليعة ، ط3 ، بيروت ، 2006.
35. عبد الحميد ، صانب ، علم التاريخ ومناهج المؤرخين . مركز الغدير للدراسات الإسلامية ، ط1، بيروت ، 2001.

36. عبد الحميد، صانب، فلسفة التاريخ في الفكر الإسلامي، دار الهادي للطباعة والنشر، ط1، بيروت، 2007.
37. عبد الحي، عمر، الفكر السياسي في العصور القديمة. مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط2، بيروت، 2006.
38. عبد زيد، عامر، التأويل اللاهوتي للتاريخ عند أوغسطين. ضمن كتاب فلسفة التاريخ جدل البداية والنهاية والعود الدائم. الرابطة العربية الاكاديمية للفلسفة، اشراف وتحقيق علي عبود المحمداوي، ابن النديم للنشر والتوزيع، دار الروافد الثقافية - ناشرون، ط1، بيروت. 2013.
39. فولغين، عصر الأنوار، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط1، بيروت، 1981.
40. قاسم، عبده قاسم، تطور مناهج البحث في الدراسات التاريخية. مجلة عالم الفكر، المجلد 20، العدد 1، ص198-199.
41. كريم، صونيل، من ألواح سومر، تر، طه باقر، مكتبة مثنى الخانجي، (ب،ط)، بغداد، 1957.
42. كوبلستون، فردريك، تاريخ الفلسفة، ج6، تر، حبيب الشاروني، محمود سيد احمد، مراجعة وتقديم إمام عبد الفتاح إمام، المركز القومي للترجمة، ط1، القاهرة، 2010.
43. كولنجرود، فكرة التاريخ، تر، محمد بكير خليل، مراجعة محمد عبد الواحد خلاف، الهيئة العامة لقصور الثقافة، (ب،ط)، القاهرة، 2012.
44. لسنج، تربية الجنس البشري، ترجمة وتقديم وتعليق، حسن حنفي، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، بيروت، 2006.
45. معلوف، لويس، المنجد في الاعلام. مؤسسة انتشارات دار العلم، ط26، طهران، (ب،ت).
46. مكيافلي، الأمير، تعريب خيرى حماد، منشورات الكتاب التجاري للطباعة، (ب،ط)، بيروت، 1970.
47. هرنشو، علم التاريخ، تر، عبد الحميد العبادوي، (ب،ن)، (ب،ط)، القاهرة، 1937.
48. هورس، جوزف، قيمة التاريخ، تر، الشيخ نسيب وهبة الخازن، (ب،ن)، (ب،ط)، بيروت، 1964.
49. هيرمان، آرثر، فكرة الاضمحلال في التاريخ الغربي، تر، طلعت الشايب، تقديم رمضان بسطاويس، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، ط1، القاهرة، 2000.
50. ويدجيرى، ج. البان، المذاهب الكبرى في التاريخ، من كونفوشيوس الى توينبي، تر، ذوقان قرقوط، دار القلم، ط2، بيروت، 1979.

51. ويلسون ، كولن . جرانت ، جون . فكرة الزمان عبر التاريخ ، ترجمة فؤاد كامل ، مراجعة شوقي جلال ، مجلة عالم المعرفة ، عدد 159 ، آذار ، 1992.
52. يزبك ، قاسم ، التاريخ ومنهج البحث التاريخي . دار الفكر اللبناني ، ط1، بيروت ، 1990.
53. عبد العزيز ، عزة ، فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع ، مكتبة القاهرة الحديثة ، القاهرة ، ط1 ، 1960.
54. مؤنس ، حسين ، مجلة عالم المعرفة الكويتية ، العدد 34 ، مايو 1978.
55. عبيد ، اسحاق ، معرفة الماضي من هيروودوت الى توينبي . دار المعارف ، ط1 ، القاهرة ، 1981.
56. 53. Collingwood. R.G. ; The Idea of History (Oxford). 1946.